الدكتور مصطفى غالب

في سبيل موسوعة فلسفية

١٩

فيثاغورس

دار ومكتبة الهلال

فيثاغورس

في سبيل
موسوعة
فلسفية
١٩

فيثاغورس

تأليف
الدكتور مصطفى غالب

منشورات
دار ومكتبة الهلال



طبعة جديدة منقحة

بيروت - بئر العبد - شارع مكرزل - بناية برج الضاحية
ملك دار الهلال تلفون ٨٣٦٩٨١ - ٤٦٣٥٥٧
ص.ب ٢٠٠٥/١٥ برقياً مكتبهلال

مقدمة

التيار الفيثاغوري الذي جرف الحركة الفكرية اليونانية في وقت من الأوقات لا يزال حتى عصرنا الحاضر يتبوأ مكان الصدارة عندما نحاول دراسة تطور الفلسفة الاغريقية ، باعتبارها المشعل العرفاني الذي أنار دروب العقل أمام أغلب الحكماء والفلاسفة الذين لعبوا دورا رئيسيا في التاريخ الانساني .

وليست فلسفة وحكمة فيثاغورس سوى ومضات عرفانية صوفية هدفت الى الزهد والتقشف ، والفناء في سبيل سبر أعماق الذات الانسانية ، والابتعاد بصورة كلية عن الشهوات واللذات الدنيوية ، حتى تعود النفس لتلحق في عالمها القدسي الروحاني ، لتعيش سعيدة تنعم بالرخاء السرمدي .

ومن المؤكد أن فيثاغورس قد نادى بالحرية ، وبشر بالأخوة والمساواة بين كافة أبناء البشرية ، حتى يعم السلام والخير العالم من أقصاه الى أقصاه ، وتشمل المعرفة كافة نواحي الحياة ، وبالفعل ومع مرور الزمن تطورت أفكار فيثاغورس حتى مثلها رجال عديدون في أجيال سابقة وفي أجيال لاحقة . امتدت أربعة قرون من الزمان .

ومما لا شك فيه بأن المدرسة الفيثاغورية قد أعطت الفكر العالمي زخما فلسفيا لا يزال تأثيره فاعلا ومتواصلا في صلب الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، وفق قواعد وأسس امتازت بها فلسفة فيثاغورس وحكمته العقلانية التي شملت النظام التربوي الدقيق. بكل معانيه الاخلاقية .والسلوكية، والتأملية الصوفية والرياضية .

ومن الطبيعي أن ينهج فيثاغورس في أول حياته العرفانية نهج من سبقه من الفلاسفة والحكماء ، فيتساءل عن ماهية الوجود وما يحيط به من موجودات علوية وسفلية ، فهل هذا الوجود هو ماء . أم هواء ، أم شيء آخر غير هذا اللامحدود اللامتناهي ؟

ويبدو أن فيثاغورس قد وجد الجواب على ما يدور في خلده ، ويتفاعل في أعماقه ، فحدده بواسطة (العدد) ، حيث نظر الى الوجود متمثلا بصورتين ذواتي وجه واحد : فالأشياء اما أن تكون أعدادا او أنها تحاكي العدد ، وأن هذه الأعداد لا تفارق الأشياء كونها متحدة بها ، لذلك فالعالم كله باعتقاده ليس سوى انسجام بين نغم وعدد • وليس هناك أي اختلاف بين المحاكاة والذات بالنسبة لمعارف وفلسفة فيثاغورس العقلانية •

ولم يكن فيثاغورس حكيما صوفيا ، وفيلسوفا عرفانيا ، فحسب ، بل كان عالما بالأمور العددية ، وبالهندسة ، وبالرياضيات ، وبالتبشير الديني ، والدعوة الى التحلي بمكارم الأخلاق والفضيلة ، والتطهير من كافة الأدران والشهوات الدنيوية • لذلك لا نستغرب اذا ظل اسم فيثاغورس الحكيم يردد في كل المناسبات على ألسنة العلماء والباحثين ، باعتباره أثر خالد سرمدي على مدى الدهور ، لا واضع أساس العلوم الطبيعية ، والفلسفة العقلانية العرفانية ، التي سادت لفترة طويلة من الزمن ولا تزال حتى الآن موضع تقدير واعجاب •

ومن الخصائص الهامة التي امتازت بها حكمة

فيثاغورس علم العدد والحساب الممزوج بالهندسة ، فهو يرى ان العدد مبدأ الوجود . وشكل هندسي منتظم منسجم ، أي أن كافة الموجودات هي ذات أشكال هندسية منتظمة ، والنظام والوحدة هي منشأ الوجود والكون المحيط بالانسان ونظامه العجيب الدقيق المرتكز فوق أسس رياضية عددية ، وجبرية ، وهندسية .

ونحن وان كنا لا ننكر مدى علاقة الأفكار الفلسفية الوثيقة بالدين ، كون الفلسفة نشأت وترعرعت في اطار تطوري للمعتقدات الدينية ، والأخلاقية ، والاجتماعية ، وأحيانا السياسية . ولكن هذا التطور كان يتناول بالنقد والتحليل المنطقي المدرك لأسلوب التفكير العرفاني الناهد الى البحث والاستقصاء عن الوجود والموجودات ، والتفكير التأملي الهادف الى معرفة ماهية الخالق ، والمبدع ، والصانع ، الذي أوجد تلك الموجودات العلوية والسفلية ، والطبيعة ، والعقل ، والنفس .

يقول الفيلسوف ألفرد هوايتهيد : « ان من شأن العلم والفلسفة أن يتبادلا النقد وأن يمد كل منهما الآخر بالمواد الخصبة التي تسمح له بالتقدم ، وفي

الوقت الذي نرى فيه أن المذاهب الفلسفية تقوم بمهمة توضيح الحقيقة الملموسة التي يجردها العلم، نلاحظ ان العلوم تتخذ مبادئها من الوقائع الملموسة التي يقدمها المذهب الفلسفي ، وليس تاريخ الفكر سوى القصة التي تحدثنا عن مدى نجاح هذا المنهاج المشترك أو فشله » .

ويلاحظ أن الحكيم فيثاغورس هو أول حكيم وصف نفسه (فيلسوفا) وتُروى عنه قصة مضمونها أنه اجتمع مرة في بيلوبونيز بأحد أصدقائه فسأله ماذا يصنع في المكان الذي اجتمع فيه ، فرد عليه لا أعمل شيئا يذكر ، فقط أنا فيلسوف وحسب ! قال له الصديق : فما تعني بكلمة فيلسوف ؟ فأجابه فيثاغورس ان حياتنا الحسية هذه تشبه الى حد

كبير اجتماعات الالعاب الأولمبية ، قد تجد فيها أناس يبحثون عن البطولة والمجد ، وآخرون يبحثون عن البيع والشراء ، وآخرون لا هدف لهم يشبه أولئك بل غايتهم أنبل وأسمى ، يحضر أحدهم الاجتماع ليمتع النفس بجمال الالعاب ليس الا ! وحياتنا في هذه الدنيا يا صديقي يماثل ويشابه هذا الاجتماع ، وأما القسم الثالث من

أولئك فهم نفر يذم شهوات الدنيا ويتلفت بكل قواه العقلية لمعرفة حقيقة الطبيعة وأسرار الكون ، وهذا النفر الاخير يا صاحبي هم الذين نسميهم بالفلاسفة !

ومما يروى عن فيثاغورس أيضا أنه كان يبالغ في وصف شخصيته ، ويتفاخر بحكمته وعلمه ، فيقول : « ان هنالك أناسا ، وهنالك آلهة ، كما أن هنالك كائنات مثل فيثاغورس لا هم من هؤلاء ولا أولئك » • وهذا يعني أن فيثاغورس يزعم بأنه صاحب مرتبة قدسية رفيعة تتمثل في شخصيته الأسطورية ، لذلك لقد اعتبره أتباعه بعد وفاته بأنه كان نبي من الأنبياء •

وفي ضوء فلسفة فيثاغورس التي تنوعت ألوان معرفتها يمكننا أن نلاحظ أثرها الشامل ، وسماتها الخاصة التي ظهرت في تلامذته وطلابه • ولا نغالي اذا قلنا أن الرياضيات الفيثاغورية تعتبر بحق وصدق المعين الرقراق الذي عب من رحيقه الفياض الفلاسفة الروحيون اللاحب الذي أوصلهم الى التجريد الذي هو أرفع مداميك العرفان اليقيني ،

الذي قال به كبار الزهاد،والحكماء، والمتصوفة .

ومهما يكن من أمر فيثاغورس ومدرسته الفكرية ، فقد استطاعت هذه المدرسة العقلانية ، أن تضيء بأنوارها العقلانية دروب الكثيرين من الفلاسفة ، والحكماء ، وعلماء الفلك ، والطب ، والهندسة والرياضيات، مدة أربعة قرون من الزمان جسدها رجال عباقرة ، فأثروا وتأثروا ، بما تركته من علوم ومعارف ، ولا يزال فيثاغورس يحتل مكانا مرموقا في الأوساط الفلسفية والعلمية في جميع أنحاء العالم ، رغم أنه لم يترك أي مصنف من المصنفات ، ولم يخلف أي كتاب من الكتب ، أو رسالة من الرسالات .

في هذا الكتاب حاولنا جهدنا أن نقدم للقاريء الكريم ترجمة واضحة صحيحة عن حياة هذا الفيلسوف الكبير ، ونماذج من أفكاره العرفانية ، ونظرياته الرياضية ، والهندسية ، فعسى أن نكون قد قمنا بالواجب ، والله من وراء القصد .

وأخيرا نرى لزاما علينا أن نتوجه بالشكر للأخ الأستاذ أحمد مغنية صاحب مكتبة ودار الهلال لما

لمسناه فيه من أخلاق سامية ، وروح علمية خالصة ، جزاه الله عن العلم والمعرفة كل خير ، وهو وحده ولي التوفيق ٠

بيروت في ١٥/٣/١٩٨١

الدكتور مصطفى غالب

فيثاغورس

رغم ان المصادر التاريخية التي تتحدث عـن حياة هذا الفيلسوف الكبير نادرة جدا ، فقد توصلنا الى جمع بعض المعلومات التاريخية الهامة التي تظهر التيار الفيثاغوري الذي ظهر في الفكر اليونانـي وطبع بالطابع الصوفي الخالص الناهد الى تحرر في الاتجاهات الفردية عن ارتباطها بالعالم الخارجي ، وربط عناصرها الفردية بكيانها الباطني العميق ، يستمد هذه الآراء من أسس الديانة الأورفية ، العقلية والاخلاقيـة ، مـع تطوير هـذه الافكار الأورفية حتى تنسجم مـع تفكير وعقليـة التيار الفيثاغوري الذي كان يعيش أتباعه ببساطة ، وعفة وتقشف ، وفق قانون ينص على ماهيـة المأكل ،

والملبس ،والصلاة، والترتيل ،والدرس ، والرياضة البدنية ٠

وكانت الجماعة الفيثاغورية تقبل بين صفوفها الرجال والنساء من اليونان والاجانب على السواء ، باعتبارهم اخوة متحابون متضامنون تجمعهم فكرة الانسجام والوحدة ، ويضمهم الوجود المشترك ، وتربطهم رابطة العمل ، من حيث أن المذهب وسيلة وغاية معا ٠

وينقل الينا الباحث برنت عن الجماعة الفيثاغورية قولهم (١) : « نحن في هذا العالم غرباء، والجسم هو مقبرة الروح ، ومع ذلك فلا يجوز لأحد منا أن يلتمس الفرار بالانتحار لأننا ملك الله وهو راعينا ، وما لم تشأ لنا ارادته الفرار فلا حق لنا في تهيئته لأنفسنا بأنفسنا ٠ والناس في هذه الحياة ثلاثة ضروب تقابل الضروب الثلاثة من الناس الذين يفدون الى الالعاب الأولمبية ٠٠ وخير الناس جميعا هم أولئك الذين جاؤوا ينظرون الى ما يجري وحسبهم ذلك ٠ وعلى هذا فأعلى درجات التطهير النفسي هو العلم الذي لا يجعل الهوى أساسه ٠

(١) Burnet, Early, op. cit. p. 108

وان من يستطيع تكريس نفسه لذلك فهو الفيلسوف الحق الذي فك الأغلال التي تربطه بعجلة الميلاد »٠

وتقول الروايات التاريخية أن فيثاغورس الذي يعني « الناطق الفيني » بلسان الوحي ، أو أبلو نفسه ، ولد في ساموس حوالي سنة ٥٨٠ أو ٥٧٢ قبل الميلاد ، وتتحدث تلك الروايات عن جده في صباه ٠ وتنسب اليه أنه صرف ثلاثين عاما من الأسفار ٠ ويحدثنا عنه هرقليطس ، فيذهب الى أن فيثاغورس كان أكثر الباحثين مثابرة وعمقا ٠ ويذكر بأنه زار بلاد العرب ، وسوريا ، وفينيقية ، وكلديا ، والهند ، وغاله ، وعاد يلقي على الرحالة حكمة عالية جديرة بالاعجاب هي قوله : اذا كنت مسافرا في خارج بلادك فلا تلتفت وراءك الى حدودها » ، ويجب أن تكبح نزواتك عند كل ثغر تدخل فيه ٠

ويقال ان فيثاغورس قد زار مصر ودرس الحكمة على أيدي الكهنة ، وتعلم الكثير من علم الفلك والهندسة النظرية ، وربما تعلم أيضا قليلا من السخف والأساطير ٠ ويروى أنه غادر بلده هربا من حكم يوليكراتيس الطاغية ، ويقال أنه هرب من

بلده الأول من عسف حاكم المدينة الذي سام أهلها سوء العذاب ،فتوجه الى ملطية، ويذهب أرستكينوس الى أن فيثاغورس ترك ساموس ، لكي يهرب من حكم بوليكراتس الظالم ، وذهب الى كروتون ، وكانت مدينة على علاقة طيبة بساموس ـ واشتهرت أيضا برياضييها وأطبائها • أما تيمايوس فيرى انه اتى الى ايطاليا عام (٥٢٩ ق•م) وبقي في كروتون (أقروطونا) عشرين عاما ، ومات في ميتابوثيوم • وكان قد لجأ اليها ، حيث ثار أهل كروتون على سلطته فيها •

وآراء المؤرخين متضاربة متناقضة حول رحلات فيثاغورس ، حتى ان المتأخرون عالجوها وكتبوا عنها الكثير • وذهب البعض الى أن هذه الرحلات غير صحيحة • وخاصة رحلتــه الى مصر ، وينكر بنفس الوقت أن الأورفية أخذت مباشرة من الديانة المصرية ، رغم وجود بعض التشابه بينهما • ولكنه يرى أنه من المحتمل أن الأورفية أخذت من الديانة المصرية عن طريق غير مباشر •

ويقال أن فيثاغورس بعد أن ناهز الاربعين من عمره توجه الى ايطاليا الجنوبية ، وكان المهاجرون

اليونان، قد وصلوا فيها الى درجة عالية من العلم والمعرفة • ونـزل فيثاغورس في أقروطونا حيث كانت فيها مدرسة طبية شهيرة • وبعد أن اشتهر بالعلم والمعرفة طلب الى ملجس شيوخ تلك المدينة أن يعظ الشعب ، ففعل ، فذاع اسمه ووفد عليه الناس من مختلف مدن ايطاليا الجنوبية وصقلية ومن روما بالذات •

ولما شعر بازدياد عدد طلابه أنشأ مدرسة دينية علمية صورة طبق الأصل عن المدارس الأورفية ، لأنه على ما يظهر كان متأثرا بتلك المدارس فأخذ عنها نظام مدرسته الجديدة • وأرشد طلابه بعد أن نظمهم ورتبهم وفق منهاج علمي تهذيبي أخلاقي ينهد الى تقديس النفس وتهذيبها ، وجعل من المعرفة رياضة دينية تعمل بجد جنبا الى جنب مع الشمائر ، وأهاب بطلابه أن ينحوا في علومهم الناحية الرياضية، والفلكية ، والموسيقية ، والطبية ، كما أوصاهم بالاستماع الى شروحاته عن هوميروس وهزيود •

ومن الملاحظ أن هذه النهضة العرفانية التي قادها فيثاغورس قد سببت في غضب الشعب والأعيان المبعدين عن الحكم ، فلم يرضوا عن هذا الانقلاب

الفكري والعقلي الذي قام به فيثاغورس ، فراحوا يعملون سرا حتى ألبوا عليه الناس ، فتوجهوا الى مدرسته بسرعة جنونية وأحرقوها ، ولم ينج من الفيثاغوريين سوى اثنين . أما فيثاغورس فقد قيل ان حملات خصومه قد أجبرته على الهرب ، بينما يقول البعض أنه مات قبل هذه الحادثة ، وقيل بل كان في أقروطونا ولكنه كان متغيبا عن المدرسة يوم الحريق ، فاستطاع أن ينجو من النار . وتتبع الشعب أنصاره في كافة المدن ، ولما استقرت الأمور في أثينا قدم اليهـا بعضهم فكـان لهم أثر كبير في الفلسفة والعلوم .

ولما كان فيثاغورس قد أوجد في مدرسته مكانا خاصا لتبول النساء ومنحهن الفرصة للتعاون مع الذكور . مع أنه يعلم حق العلم بأن بين الجنسين فوارق طبيعية من جهة وظائف كل منهما . لذلك راح يلقن تلميذاته الشيء الكثير مـن الفلسفـة والاداب والامومة وتدبير المنزل ، مما أدى الى اشتهار المرأة الفيثاغورية في الزمن القديم ، حتى قيل أنهن من أرفع نموذج في الأنوثة أخرجته بلاد اليونان في جميع العصور .

ويقال أن فيثاغورس قد وضع لطلابه وطالباته

بصورة خاصة قواعد تكاد تحول مدرسته الى دير لراهبات • فقد كان من يدخلونها يقسمون يمين الولاء للأستاذ ولبعضهم بعضا • وتجمع الروايات المأثورة على أنهم كانوا يشتركون على قدم المساواة في جميع طيبات الحياة ما داموا يعيشون في هذه الجماعة الفيثاغورية •وكان اللحم والسمك والفول محرمة عليهم ، أما الخمر فلم تكن محرمة ، ولكنه كان يوصيهم بشرب الماء ، وتلك وصية شديدة الخطورة في جنوبي ايطاليا في هذه الأيام ، وربما كان تحريم اللحم لسبب ديني ذي صلة بعقيدة تقمص وتناسخ الأرواح ، فان على الناس أن يحذروا أن يأكلوا أجدادهم • والراجح أنه كان يباح للطلاب أن يخرجوا على حرفية هذه القواعد من حين الى حين •

ويرى المؤرخون الانجليز بنوع خاص أن من غير المعقول أن يصبح المصارع ميلو الفيثاغوري أقوى رجل في بلاد اليونان كلها دون أن يأكل لحم العجول ـ وان العجل الذي أصبح بين ذراعيه ثورا قد شب على أكل الكلأ ـ وكان فيثاغورس يحرم على أفراد جماعته أن يقتلوا أي حيوان لا يؤذي الانسان أو أن يتلفوا شجرة مزروعة • وكان يطلب

منهم أن يبتعدوا عن الأنانيــة والكبرياء ، وألا يندفعوا في الضحك ، وألا يكونوا مع ذلك عابسين • ولم يكن يباح لهم أن يقسموا بالآلهة لأن من الواجب على كل انسان أن يعيش عيشة تجعله خليقا بأن يصدقه الناس دون أن يلجأ الى القسم •

وكان فيثاغورس يحرم على أتباعه أن يقدموا الضحايا قربانا ، وكان في وسعهم أن يتعبدوا أمام المذابح التي تلوثها الدماء • وكان عليهم أن يسألوا أنفسهم في آخر كل يوم عما ارتكبوه من الذنوب ، وعما أهملوه من الواجبات ، وعما فعلوه من الخير •

ومن الملاحظ أن فيثاغورس قد قيد نفسه بهذه القواعد وحرص عليها أشد الحرص تلامذته ، مما أكسبه المزيد من الاحترام والتقدير ، وقد أشار التاريخ بوضوح وجلاء الى أن المعلم نفســه أي فيثاغورس لم يشرب الخمر بالنهار أبدا ، وأنه كان يعيش معظم أيامه على الخبز والعسل ، وأن حلواه كانت هي الخضر ، وأن ثوبه كان على الدوام ناصع البياض ، وأنه لم يعرف عنــه قط أنه أفرط في الأكل ، أو عشق ، وأنه لم يغرق في الضحــك ، أو المزاح ، أو القصص ، ولم يعاقب انسانا مطلقا ولو

كان عبدا • وكان تيمن الأثيني يظنه مشعوذا يخادع بقول الجد ، ويعمل على اصطياد الناس ، ولكن زوجته ثيانو وابنته دامو كانتا من أشد أتباع فيثاغورس اخلاصا وينفون نفيا قاطعا هذا القول ، ويوازنا بين عمق فلسفته وحياته • ويذكر ديوجنيز ليرتس انه عهد بتعليقاته الى دامو وأمرها أن تذيعها لأي انسان في خارج البيت ، وانها لم تفرط قط في أحاديثه مع أنه كان في وسعها أن تبيعها بالمال الكثير ، لأنها كانت ترى أن طاعة أوامر والدها أثمن من الذهب ، ويزيد في فضلها أنها امرأة (١)•

وكان الانضمام الى المجتمع الفيثاغوري يتطلب ، فضلا عن تطهير الجسم بالعفة وكبح الشهوات ، تطهير العقل بدراسة العلم • وكان ينتظر من الطالب الجديد أن يلتزم الصمت الفيثاغوري مدى خمس سنين ــ ولعل المقصود بالصمت الفيثاغوري أن يتقبل الأوامر من غير سؤال أو مناقشة ــ قبل أن يعترف به عضوا كاملا في الجماعة ، وقبل أن يسمح له بأن يرى فيثاغورس ويدرس عليه •

وتنفيذا لهذا النظام الدقيق كان الطلاب

---

(١) قصة الحضارة : ول ديورانت جـ ٢ ص ٢٩٦ .

يقسمون الى طلاب خارجيين وطلاب داخليين ، وكان الداخليون هم الذين يحق لهم أن يعرفوا الحكمة السرية للمعلم نفسه • وكان منهج الدراسة يتألف من أربعة موضوعات : الهندسة المنظرية ،والحساب، والفلك ، والموسيقى •

النظام الفيثاغوري :

لا بد للباحث عندما يتحدث عن فيثاغورس من التطلع الى المدرسة الفيثاغورية والى النظام الدقيق الذي تتبعه الجماعة في تلك المدرسة ، وكذلك بالنسبة لتكوين هذه الجماعة وبنيتها العرفانية ، ومدى تقيد الأفراد بالنظام العام الذي فرضه عليهم المعلم صاحب ومؤسس تلك المدرسة •

ويذهب برنت الى أن الفيثاغورية في مبدأها كانت عبارة عن أخوة دينية ، ولم تكن على الاطلاق جماعة سياسية • ويعتمد في رأيه هذا على ما قاله أفلاطون في جمهوريته أن فيثاغورس لم يتول منصبا عاما على الاطلاق • وأنه لم تكن له أدنى علاقة بالارستقراطية المثالية الدورية ، ان فيثاغورس كان أيونيا ، ومذهبه انما كان فقط للمدن الآخية • ولا يوجد أي شاهد يثبت أن الفيثاغوريين أيدوا

الحكم الارستقراطي ، انما كان الغرض الاساسي من النظام الفيثاغوري هو اذاعة وتنمية فكرة القداسة • انها تشبه مجتمعا أورفيا ، غير أن الفيثاغورية استبدلت ديونيسوس اله الأورفية بالاله الفيثاغوري أبولون •

ويرى كريتشه وشميت ـ مخالفين لبرنت ـ أن الفيثاغورية كانت فرقة سياسية ، شاركت في الحكم ، وأيدت النظام الارستقراطي ، وأتوا بشواهد لغوية قوية • ومن الغريب أن يحاول برنت انكار الجانب السياسي للفيثاغورية ، مع أن هناك دليلا هاما يثبت مشاركتهم في السياسة : وهو الثورات الكبرى التي نشأت عن مشاركتهم وتأييدهم للحكم الاستبدادي ، وانقلاب الناس عليهم ، وحرقهم أحيانا ، وهرب فيثاغورس • أما ما ذكره أفلاطون من أن فيثاغورس لم يتول منصبا حكوميا فلا يعني أنه لم يشارك في السياسة ، ولم يحرض مدرسته وطلابه على الأخذ بنصيب وافر منها • ولقد صدق بربيه عندما قال : لم تكن الفيثاغورية حركة عقلية فحسب بل كانت حركة دينية وأخلاقية وسياسية • وقد تمكنت من انشاء أخوة ، استخدمت أسلحة الدعاية ، للتوصل الى السلطة في مدن اليونان

الكبرى (١) ٠

ونحن وان كنا في مجال العرض لا المناقشة وابداء الرأي ، لا بد لنا من القول بأن كل الأديان والمذاهب ، والفرق والجماعات ، التي قامت عبر التاريخ لتؤلف مدارس خاصة بها لتتمكن بواسطة هذه المدارس من نشر وتعميم أصولها واحكامها ، ومبادئها وأفكارها ، لا بد لها من الاعتماد على السياسة ، لأن السياسة تلعب دورها الفعال في كل حركة يتحركها أبناء البشر ، سواء كانت هذه الحركة دينية أو اجتماعية أو أخلاقية ٠

ولا نعني بالسياسة الوصول الى الحكم أو المشاركة فيه ، واقتسام المغانم ، ونهب ثروات الأمة ، انما نعني بالسياسة القيادة والارشاد والتعليم ،ومحاولة اصلاح ما فسد من المجتمع والأخلاق ، والاقتصاد ، وحتى الدين ٠ ولا أدري كيف يجوز لحكيم ، أو فيلسوف ، أو قائد ملهم ، أن يتجاهل ما يجري في بلاده ، وما تتعرض له هذه البلاد من ويلات ومصائب ، ويبقى بلا حراك لا يتدخل ، ولا يحاول مد يد المساعدة لوطنه الجريح ، عسى أن يتمكن من

---

(١) Brehier:; L'histoire de la philosophic T.I. p. 05

انقاذه ، ورفع الظلم والعسف عن مواطنيه ، واعادة الرخاء والهناء الى أبناء شعبه ؟

ومما لا شك فيه أن فيثاغورس قد نجح الى حد ما في نشر وتعميم نظامه الجديد ، فاستأثر بالسلطة الكاملة في المدن الآخية . ولكن سرعان ما تمكن خصومه من تأليب الجماهير عليه بتأثير الدعايات الكاذبة التي كانوا يطلقونها حوله . وعندما وفد فيثاغورس على كرتون كانت تشمخ بازدهارها ونموها العقلاني ، ولكن حدث أن مدينة سيباريس قد فضلت الخروج من نطاق هذه الدولة الفتية المزدهرة مما جعل فيثاغورس يحزن حزنا شديدا ، فطلب من أهل كروتون أن ياووا اليهم بعض اللاجئين من سيباريس ، كونهم كانوا ضحايا الظلم والاستبداد ، وسرعان ما قامت حركة معارضة لفيثاغورس ونظامه الذي أوجده في كروتونا نفسها، بزعامة فيلون أحد أشراف كروتونا وأثريائها .

ولما شعر فيثاغورس بأن الخطر أصبح يتهدده خاصة بعد أن أقدمت الجماهير الثائرة على حرق مدرسته بما فيها من أساتذة وطلاب ، توارى عن الأنظار هاربا الى ميتابونتوم حيث قضى فيها بقية أيامه الأخيرة .

وبعد موته تواصلت الثورات والحملات الارهابية ضد الفيثاغورية في جميع أنحاء ايطاليا ، حتى كاد أن يقضى عليهم وتستأصل جذورهم ، ولم يسلم من طلاب المدرسة الفيثاغورية سوى طالبين هما أرخيفوس وليبسيس • وبعد فترة متأخرة من الزمن عاد أتباع المدرسة الفيثاغورية الى ايطاليا ، وسرعان ما أصبح لهم نفوذ عظيم •

ارشادات وتعاليم فيثاغورس :

ولما كانت حياة فيثاغورس غامضة أشد الغموض، فقد كانت ارشاداته وتعاليمه أيضا غامضة ، فلم يتوصل أحد الى معرفة حقيقة مذهبه الأخلاقي والطبيعي ، حتى ان الفلاسفة الكبار الذين جاؤوا بعده مثل أرسطو وأفلاطون لم يتبينوا بوضوح معالم أفكار فيثاغورس العرفانية ، وكل ما وصل اليهم ما رواه ارستكسنيوس عن مجموعة من القواعد الأخلاقية عنده • أما ديكارخوس فقد أشار فقط الى أن فيثاغورس كان يعلم طلابه مذاهب التناسخ والدورة الزمانية وقرابة الموجودات الحية كلها •

هذا مع العلم ان فيثاغورس كان يلقي دروسه ومحاضراته بصورة شفهية ، ولم يحاول قط أن

يكتب كتابا أو رسالة ، حتى أن أحدا لم يزيف أي تصنيف من التصنيفات باسمه، الا في عهد الأفلاطونية الحديثة ـ كما زيفت وزورت أيضا عدة مصنفات للفيثاغوريين الأوائل •

وفي ضوء الشذرات والنصوص القليلة التي وقعت بين أيدينا يمكننا أن نقول ان فيثاغورس كان من المؤمنين بتناسخ الأرواح ، وأنه كان يعلم أتباعه هذه العقيدة • ويلاحظ أن هذه العقيدة التي كان يعتنقها فيثاغورس ليست سوى تطور للعقيدة البدائية في تناسخ الأرواح التي كان يؤمن بها فيثاغورس ، وهي عقيدة قرابة الناس والحيوانات ، وكان هذا مرتبطا بنوع من التابو ـ التحريم لبعض أنواع من الطعام ، ولذلك عرفت الفيثاغورية بتحريم أنواع الطعام : ويبدو أن فيثاغورس قد أتى بهذا التحريم من أيونيا • حتى أن فيثاغورس رفض أن تقدم قرابين الا على أقدم مذبح ، وهو مذبح أبولو الأب ، ولم يقدم أي قربان دموي •

ويمكننا أن نحدد معالم ارشادات وتعاليم فيثاغوراس بالأمور التالية :

١ ـ الامتناع عن أكل الفول •

٢ ـ ألا يلتقط ما قد يسقط على الارض ·
٣ ـ ألا يمس الديك الابيض ·
٤ ـ ألا يكسر الخبز ·
٥ ـ ألا تخطو من فوق حاجز ·
٦ ـ ألا تحرك النار بالحديد ·
٧ ـ ألا تأكل من رغيف كامل ·
٨ ـ ألا تنزع الزهر من اكليل ·
٩ ـ ألا تجلس على مكيال ·
١٠ ـ ألا تأكل قلبا ·
١١ ـ ألا تمشي في الطرق العامة ·
١٢ ـ ألا تسمح للعصافير أن تبني أعشاشها في دارك ·
١٣ ـ اذا رفعت القدر عن النار فلا تترك أثرها على الرماد ، بل امزج الرماد بعضه ببعض ·
١٤ ـ لا تنظر الى المرآة بجانب النور ·
١٥ ـ اذا ما نهضت من فراشك فاطو الفراش وسو موضع جسدك منه ·

وبالاضافة الى هذه الارشادات التقشفية ، فقد طلب فيثاغورس من طلابه الامتناع عن أكل اللحوم وبعض الأطعمة ، وقد أصبح فيما بعد هذا الامتناع جزء لا يتجزأ من المذهب الفيثاغوري ، ولكن أحد

الكتّاب الاغريق ذكر أن فيثاغورس امتنع عن أكل لحم الثور الذي يحرث الأرض ولحوم الكباش ، أما غير ذلك من اللحوم فلم يمتنع عنه ، ولا ندري ما هي الاسباب التي دعت فيثاغورس لايجاد قاعدة الامتناع عن أكل اللحوم ، الا اذا كان قد أراد من وراء ذلك التأكيد على صحة نظريته القائلة بوجود قرابة بين الحيوان والانسان ، أو كانت الاسباب تحقيقا لفكرة التابو • ولكن فورفوريوس يقدم لنا الدليل في كتابه « دفاع عن التحريم » أن الفيثاغورية كانت تبيح أكل لحوم القرابين ، ولو أنها تحرم تناول اللحوم كمبدأ •

المعرفة الفيثاغورية :

اذا كانت مصنفات فيثاغورس قد فقدت على مرور الزمان ، أو اذا كان فيثاغورس نفسه لم يصنف أي كتاب ، كونه كان يلقي حكمه وارشاداته شفهيا ، أو اذا كان كل ما نسب وينسب الى فيثاغورس من « أشعار ذهبية » ومن « كتب ثلاثة » (المهذب ، والسياسي ، والطبيعي) فهو منحول يرجع الى العهد الثاني • كذلك الكتب المنسوبة لتلاميذه الأولين ــ وأشهرهم فيلولاوس ــ منحولة

أو مشكوك فيها الى حد كبير • فهذا كله لا يعني ان العلوم والمعارف الفيثاغورية قد تبخرت هي أيضا مع مرور الوقت ، فمن الخطأ والانحراف تجاهل المعرفة الفيثاغورية ، وما كان لهذه المعرفة من مكانة سامية في الافكار والعلوم اليونانية ، حيث أصبحت مدرسة عرفانية حقة عمت تعاليمها وارشاداتها كافة البلدان اليونانية •

ونلاحظ من خلال أقوال بعض المؤرخين أن المعرفة الفيثاغورية قد أطلت على العالم في العقود الأولى من القرن الخامس ، وقد سمعنا هرقليطس يقول بأن فيثاغورس قد عانى الأبحاث العلمية أكثر من غيره • كما أن هيروتس يرى انه لم يكن أضعف العلماء في اليونان أو أضعف السوفسطائيين ، كما أن أرسطو أشار الى أن فيثاغورس قد وجه اهتمامه الزائد الى الرياضيات والأعداد ، ثم كان يزاول الأعمال العجيبة • واذا كانت الفيثاغورية قد قبلت جميع العبادات والطقوس القديمة ، فانها قد وضعت معاني وأسس عميقة للتطهير ، واستخدمت الموسيقى لعمليات تطهير النفس ، كما استخدمت الطب لتطهير الجسد • ويقال ان فيثاغورس كان له تاثير في أفكار أرسطو ، وخاصة ما يتعلق منها

بنظرية الحيوات الثلاث : الحياة النظرية ، والحياة العملية ، والحياة المقدسة ٠

وينطلق مذهب فيثاغورس العرفاني هذا من قوله : نحن غرباء في هذا العالم ، والجسد هو مقبرة النفس ، لذا لا ينبغي أن نهرب من أنفسنا بالانتحار لأننا أغنام ، والله راعينا ، وبدون أمره لا حق لنا أن نهرب ٠ وهذا الرأي ينسجم مع أقوال أفلاطون في فيدون التي يرى فيها أن الحياة ثلاثة أنواع من الناس :

١ ـ الطبقة الدنيا : وهي مكونة من هؤلاء الذين يأتون الى الالعاب الأولمبية للبيع والشراء ٠

ـ الطبقة الثانية : وهي مكونة من هؤلاء الذين يشتركون في الألعاب ٠

ـ الطبقة الثالثة : وهم خير هؤلاء ـ من يأتون للمشاهدة والنظر ٠ فالتطهير الأعظم ـ هو النظر ٠ ومن كرس نفسه للعلم ، هو الفيلسوف الحقيقي ، وهو الذي حرر نفسه من عجلة الميلاد ٠

ويمكننا أن نلمس في المعرفة الفيثاغورية نزعة

التشاؤم الهندسية تختلط اختلاطا كليا في فلسفة فيثاغورس الاخلاقية وبروح أفلاطون المثاليـة ، باعتبار أن النظام الفيثاغوري يرى أن لا خلاص من الحياة الا عن طريق التناسخ ، وسبيل الخلاص ينطلق من الفضيلة ، والفضيلة هي انسجام الروح مع ذاتها ومع الله ·

ويقال ان أصحاب وجماعـة فيثاغورس كانوا يستعملون الموسيقى كما كان يستعملها كهنة اليونان وأطباؤهم لمعالجة الاضطرابات العصبيـة ، لأنهم كانوا يعتقدون ان أكثر به النفس على التآلف هو الحكمة ، التي تعني فهم الحقائق التي يقوم عليها هذا التآلف فهما هادئا ، وذلك لأن هذه الحكمة تعلم الانسان التواضع والاعتدال ، والطريقة الوسطى الذهبية · أما طريقة التطرف والتنازع والصراع الدائم ، فتؤدي حتمـا الى العسف ، والعقـاب ، والعدالة ، الذي يساوي بمفهوم الفيثاغورية « عدد مربع » ، وكل خطأ سوف يربع ان عاجلا أو آجلا بالعقوبة المماثلة له · وليس هذا الرأي ببعيد عن فلسفة أفلاطون وأرسطو الاخلاقية ·

والذي يمكننا أن نستنتجه من الروايات القديمة

المتواترة أن سياسة فيثاغورس كانت أرستقراطية شيوعية : تطلب الى الرجال والنساء أن يجمعوا كل ما لديهم من الطيبات ، وأن يتعلموا مجتمعين ، وأن العلوم الرياضية والموسيقى ، والفلسفة ، وأن يدربوا على الفضيلة والتفكير الراقي بطريق يتقدموا من تلقاء أنفسهم ليكونوا حكام الدولة الحارسين لها •

وفي الحقيقة ان الجهد السياسي الذي كان يبذله فيثاغورس ليجعل مجتمعه هو نفسه حكومة مدينته العقلية ، هو الذي سبب له ولأتباعه الهلاك والدمار • فقد اندفع المبتدئون من جماعته في صراع السياسة ، وانحازوا الى جانب الأشراف انحيازا ألب عليهم حزب الشعب في كروتونا،فاندفع أفراده في ثورات حقدهم وغضبهم ، وأحرقوا البيت الذي كان الفيثاغوريون مجتمعين به ، وقتلوا طائفة منهم ، وأخرجوا الباقين من المدينة • وتحدثنا احدى الروايات ان فيثاغورس بالذات قد قبض عليه وقتل حين رفض أثناء فراره أن يطأ بنمله حقلا من الفول، وتقول رواية أخرى انه فر الى متاينتم وصام فيها عن الطعام أربعين يوما ــ ولعله كان يشعر أنه يجب أن يضع حدا لحياته بعد أن تجاوز الثمانيين عاما ــ وأمات نفسه جوعا •

فيثاغورس والحساب :

يستدل من النصوص التاريخية القديمة أن اليونان عرف علم الحساب قبل ظهور فيثاغورس ، ولكن هذه المعرفة كانت مقتصرة على الأمور التجارية المحضة ، وعندما جاء فيثاغورس كان أول من فكر بجعل الحساب علما مستقلا لذاته · ويقول أوستكسنيوس أن فيثاغورس هو أول من أجرى أبحاث تتعلق بالحساب ، ولم تكن تلك الابحاث لها أية غاية أو هدف تجاري ·

ومن المؤكد أن فيثاغورس قد اهتم اهتماما كبيرا بالرياضيات ، ولكن مع الأسف الشديد لم يترك لنا شيئا مدونا ومكتوبا ، يمكننا في ظله أن نشرح الفروقات بين تعاليمه الرياضية وبين تعاليم تلامذته ومريديه ، لذا بمقدورنا أن نعتبر آراء فيثاغورس الرياضية هي أكثر الأفكار بدائية في مذهبه الرياضي ، لأنه من المؤكد أن أصحابه قد طوروا أفكاره فيما بعد ، غير أننا لا نزال حتى الآن نلاحظ بعض الآراء البسيطة الساذجة في رياضيات الفيثاغوريين المتأخرين ، بالرغم من أن هذه الرياضيات قد وصلت الى درجة كبيرة من التقدم ·

والسبب في الاحتفاظ بهذه الأفكار ، هو أنها آراء المعلم الاول الحكيم فيثاغورس فقط ٠

لقد حاول المعلم فيثاغورس بعد تأمل وتفكير أن يستعلم مستفسرا عن أحوال الوجود ومـا مدى حقيقته ؟ وهل هو اللامحدود واللامتناهي ؟ لذلك نراه ينظر الى الوجود فتتمثل له صورتين بوجـه واحد : فالأشياء اما أن تكون أعدادا أو أنها تماثل العدد ، وأن هذه الأعداد لا تفارق الاشياء بـل متحدة بها ، لذا فالعالم كله حسب رأي فيثاغورس ينسجم مع نغم وعدد ٠ وهذا يعني أنه بالامكان تحويل الأصوات الموسيقية الى أعـداد ، نظرا لما بينهما من تشابه ، وانطلاقا من هذا المبدأ القائل بصلة القربى والتماثل بين الاشياء والأعداد ، عمد أصحاب المدرسة الفيثاغورية الى توحيد الأعداد مع الاشكال الهندسية وسموها أعدادا أيضا ٠ ولمـا لاحظوا التطابق والتوافق بين حركـات الكواكب وسيرها من جهة ، وبما يصدر من أنغام موسيقية ، فقد ربطوا هذه الاشياء كلها برباط من التطابق والانسجام ، وقالوا ان الأعداد تمتاز بصفتـين : الزوجية والفردية ، فالزوجيـة برأيهم تماثـل اللامحدود ، والفردية تماثل المحدود ، نظرا لقبول

الزوجية صفة القسمة ولعدم قبول الثانية هذه القسمة ٠

ولما كان التعارض موجودا بين الفردية والزوجية فقد رتبوا المتقابلات على الشكل التالي : المحدود واللامحدود ، الفردي والزوجي ، الواحد والكثير ، اليمين واليسار ، المستقيم والمنحني ، المذكر والمؤنث ، الثابت والمتحرك ، النور والظلمة ، الخير والشر ، المربع والمستطيل ٠ وهكذا وضعوا جذور المتناقضات في الوجود ، كون العدد الفردي حسب رأيهم محدود لأنه لا ينقسم ، بينما العدد الزوجي لا محدود لأنه ينقسم ، والاول مثال الوحدة ، بينما الثاني مثال التعدد ، والاول مؤنث لأنه لا ينتج شيئا بذاته ، بينما الثاني مذكر لأنه مصدر الانتاج ٠

وهذه الثنائية التي قال بها أصحاب فيثاغورس تقودنا الى صميم الأديان الشرقية ، اذ من المحتمل أن تكون وصلت الى اليونان في عهود متأخرة ٠ لذا لا نستبعد أن يكون الفيثاغوريين قد نظروا الى الوجود في ضوء العدد حتى يقيموا الاخلاق انسجاما مع أقسامه ، وكذلك بالنسبة للحركة ، والكون ٠

وأصل العدد عند الفيثاغورية هـو الوحدة ، وعنها نشأت الثنائية ، بمعنى أن الوحدة هي منشأ الوجود وصورته ، ومادة الوجود ، وهذه الوحدة هي مصدر الخير والفضيلة ، وأن الثنائية هي مصدر الشر ومجمع الرذيلة • لذلك يرون ان الصراع قائم وأبدي بين الاثنين على أساس مبدأ الوجود الذي هو الله • ففي العدد مبدأ الانسجام والتوافق ، كما فيه مبدأ التعدد والتناقض •

ويرى زيلر بأن الأعداد الفيثاغورية هي صورة وهيولى معا للأشياء ، تشمل كل الوجـود المـادي والمعنوي على السواء ، وهذا الشمول يشمل أيضا العناصر الحسية والمادية ، ويتضمن الائتلاف بين الاشياء والأعداد ، وكأنها المصدر الاصيـل لهذه النظرية بالذات • لهذا نلاحظ ان الفيثاغوريـة ربطت بين الشكل والعدد ، فمنحت للأعداد هيئات متماثلة : فالواحد نقطة ، والاثنان خط ، والثلاثة مثلث ، والاربعة مربع • هذا من جهة ومن جهـة أخرى أضافوا الى الأعداد مناقب أخلاقية واجتماعية فاعتبروا العدد سبعة يمثل وحدة الوقت الكاملة ، والعدد أربعة يمثل العدالة ، والعدد ثلاثة يمثل الزواج • ثم ذهبوا الى أن الواحد هو العقل ، بينما

الأحدية هي صفة الالوهية . أما العدد (١٠) فقد أعطوه صفات قدسية كونه مثلث العدد أربعة ، وهو مجموع الأعداد الاولية (١ + ٢ + ٣ + ٤ = ١٠) وتشير بعض المصادر أنهم كانوا يقسمون بهذا العدد أي بالعشرة ، كونه ممثل للكون العام .

وتنسب الى فيثاغورس ومدرسته عدة نظريات هندسية بعضها يعود له وبعضها الآخر يعـود الى عصر متأخر عنه . ومن هذه النظريات النظريـة الخاصة بالمثلثات قائمة الزوايا التي تقول : « ان مجموع المربعين القائمين على الضلعين المجاورين للزاوية القائمة يساوي المربع القائم على الضلع الثالث الذي هو وتر المثلث . وأدت هذه النظرية بالتالي الى اكتشاف الأطوال التي يستحيل قياسها ، وهذا الاكتشاف برأي رسل يهدم فلسفة فيثاغورس بكاملها : « في المثلث القائم الزاوية المتساوي يكون المربع المقام على الوتر ضعف المربع المقام على أي من الضلعين الآخرين . فلنفرض أن طول كل ضلع من أضلاع المثلث بوصة واحدة ، فكم يكون طول الوتر ؟ افرض أن طول الوتر هو م ن من البوصات ، اذن م٢ ن٢ = ٢ ، فاذا كان هنالك مضاعف مشترك بين م ، ن فاقسمها عليه فيكـون

اما م أو ن عددا فرديا · ولما كانت $م^{٢} = ٢ن^{٢}$ كانت $م^{٢}$ عددا زوجيا وكانت بالتالي م عددا زوجيا كذلك ، ويكون ن على ذلك عددا فرديا · ثم لنفرض أن م = ٢ب ، اذن $٤ب^{٢} = ٢ن^{٢}$ واذن $ن^{٢} = ٢ب^{٢}$ ، واذن تكون عددا زوجيا وهو عكس المطلوب (١) · فليس هناك اذن كسر ــــــ قياسا لطول الوتر · هذا التدليل يبرهن على أنه مهما تكن الوحدة الطولية التي تتخذها فستجد أن هناك أبعادا ليس بينها وبين تلك الوحدة الطولية نسبة عددية مضبوطة ، وهذا يعني أنك لن تجد عددين م ، ن بحيث اذا كررنا ذلك البعد المعين عدد م من المرات كان مساويا للوحدة الطولية عدد من المرات » ·

ويلاحظ ان فيثاغورس لم يستعمل الحروف لاثبات نظريته لأن الأعداد الحرفية لم تكن بعد قد استخدمت في عصره · انما يبرهن على صحة نظريته عن طريق رسم الخطوط على الرمل واستخدام الحصى ، وربما يكون قد استعان بالنظام العشري الذي استعمله المصريون من قبل ·

---

(١) رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ١ ص (٧٠ ــ ٧١) .

العالم والنار والانسان :

يعتقد فيثاغورس أن العــالم حادث ، وكــان حدوثه مقابلا للعدد (١٠) ومركز العالم نار ، ثم انفصلت الاشياء ، ومن اللامحدود ، واتجهت نحو النار ، وباتحادها معه تكوّن العالم وفق الترتيب التالي :

١ ــ السماء الأولى ٠
٢ ــ الكواكب الخمسة ٠
٣ ــ الشمس ٠
٤ ــ القمر ٠
٥ ــ الأرض ٠
٦ ــ الأرض غير المنظورة ٠

والنار تعتبر مركز العالم ، وهي مركز الامداد للشمس ، والارض غير المنظورة لها قيمة كبرى بالنسبة للنظام الكوني الفيثاغوري ٠ فهي سبــب الليل والنهار والخسوف والكسوف ٠ ويؤكد مؤرخو الفلسفة أن الفيثاغوريين كانــوا أول من أنكــر النظرية القائلة بأن الارض هي مركز العالم ، كما أنهم أول من توصل الى فكرة كروية الارض ،وحركة

الكواكب ، وفق أنغام علوية ، يماثل نغم العدد والحانه ، وهو عدد ــ في نطاق الأعداد المادية ــ وقد دعت نظرية الفيثاغوريين بأن ثمة أنغاما علوية الى القول بأن العالم كائن حيوان كبير ، يستوعب بالنفس خلاء لا متناهيا · وهذا يعني أنهم قالوا بنفس العالم ، أو بالنفس الكلية ·

ويذهب أصحاب المدرسة الفيثاغورية الى أن العالم ليس سوى كائنا حيا ، أو حيوانا كبيرا ، يستوعب عن طريق التنفس خلاء لا متناهيا هو عبارة عن هواء غاية في اللطافة ضروري للفصل بين الاشياء ومنعها من أن تتصل فتكون شيئا واحدا (١) · وقالوا بعوالم كثيرة ، ولكن في عدد متناه ، وجعلوا الاشياء تحدث عن طريق التكاثف والتخلخل ، لا يتحول بعضها الى بعض ، لأن الاعداد بمفهومهم نظام ثابت متجانس · وقالوا بالدور وعودة الاشياء هي بأنفسها في آجال طويلة « السنة الكبرى » الى غير نهاية ·. ويحكى أن أوديموس تلميذ أرسطو قد نوه الى هذا الأمر قائلا لطلابه : « اذا صدقنا الفيثاغوريين فسيجيء يوم تتجمع ثانية

---

(١) ارسطو : السماع الطبيعي م٤ ف٦ .

في هذا المكان ، فتجلسون كما أنتم لتستمعوا الي
واتحدث أنا اليكم كما أفعل الآن » .

النفس الانسانية عند فيثاغورس :

يفهم فيثاغورس النفس الانسانية على أنها ليست سوى عدد وانسجام فحسب ، يوجد عند ولادة الانسان ، فهي اذن عند الفيثاغورية مادية، لا أكثر، لا وجود ذاتي لها . ولكن عندما يتم لهذه النفس الانسجام توجد ، ويستمر وجودها الى الأبد ، فهي لم توجد اذن قبل وجود البدن ، ولكن وجودها يكون مساوقة له في الوجود ، فاذا وجدت مرة انتقلت بعد انفصالها عنه الى جسد آخر ـ انسانيا كان أو حيوانيا ـ وهذا هو التناسخ بعينه ، الي اعتقدت به الأورفية من قبل ، وسمته « عجلة الميلاد » حيث تعود النفس الى جسد انسان أو حيوان ، وهكذا باستمرار حتى تصل الى درجة التطهير المطلق ، وهذا التطهير يأتي باتباع نظام وقواعد معينة في المأكل والملبس ، وعبادات قاسية تجري باشراف كهنة الأورفية ، وقد أثرت الأورفية قولا وعملا في الفيثاغورية ، فعاش فيثاغورس وأصحابه عيشة تقشف وزهد ، حسب أقوال المصادر التاريخية .

ويبدو أن هذه النظرية الفيثاغورية نفسها قد خضعت للتأثير الأورفي ، ولكنها أضافت الى فكرة التطهير بالحياة العملية فكرتين من أجمل الافكار في التطهير النفسي هما : العلم الرياضي والتأمل فيه ، ثم الموسيقى · ذلك ما جعل الفيثاغورية تدخل من الباب الواسع في تاريخ الفلسفة اليونانية ، ولما أطلت الفيثاغورية الحديثة أخذت على عاتقها مهمة توضيح المذهب الفيثاغوري واضافة عناصر كثيرة ومتعددة اليه ، مما كان لها تأثير فعال على أفلاطون، وبصورة خاصة على ما قاله في محاورة « فيدون » ·

ولما كانت الفيثاغورية قد قالت ان النفس نوع من النغم ، فهذا يعني أن الحي مركب من كيفيات متضادة ، والنغم بدوره حسب رأيهم ينسجم مع توافق الأضداد وتناسبها ، فتدوم الحياة ما دام هذا النغم ، وتنعدم بانعدامه (١) · وانطلاقا من هذه النظرية التي ترى أن النغم نتيجة انسجام الأضداد، لزم من جهة ان ليس للنفس وجود ذاتي ، بينما الفيثاغورية تؤمن بالخلود ، ولزم من جهة أخرى أن ليس لها وجود سابق على عناصر البدن

(١) افلاطون : فيدون ص ٨٥ هـ ــ ٨٦ د .

والفيثاغورية تؤمن بالتناسخ . على أن ارسطو عندما يتعرض لهذه النظرية يضيف اليها قولين : الواحد ان النفس هي الذرات المتطايرة في الهواء والتي تدق عن ادراك الحواس فلا تبصر الا في شعاع الشمس وتتحرك دائما حتى عند سكون الهواء ـ فكان أصحاب هذه النظرية أرادوا أن يفسروا الحركة الذاتية في الحيوان ، ففهموا ان هذه الذرات المتحركة دائما تدخل جسمه وتحركه. ويذهب القول الآخر الى أن النفس هي المبدأ الذي تتحرك به هذه الذرات (١) .

وبعد مفارقة النفس للجسد تهبط الى الجحيم لتتطهر بالعذاب ، ثم تعود الى الارض لتتقمص جسما بشريا أو حيوانيا أو نباتيا ، ولا تزال تتردد بين الارض والجحيم حتى يتم تطهيرها ، ومما يحكى عن فيثاغورس أنه كان يدعي بأنه متجسد للمرة الخامسة ، وأنه لا يزال يذكر تجسده السابق . ويعتقد الفيثاغوريين أن أزمنة التقمص قد حددها الآلهة ، ونحن ملكهم ، فليس لنا أن نخالف النظام الذي وضعوه بالانتحار ، أو باهلاك الحيوان فيما

---

(١) ارسطو : كتاب النفس م ١ ف ٢ .

عدا التضحية،ويبدو أن نظرية التناسخ الفيثاغورية تنسجم تمام الانسجام مع نظرية الدور ، ولكن الغاية الرئيسية من التناسخ هي الطهارة التامة ، والسعادة الدائمة ٠

ويبدو أن فيثاغورس قد أولى النواحي الأساسية الخالدة لأي شيء التي هي ما بين أجزائه لها ارتباطات وعلاقات عديدة ، وكان يلاحظ أن الصحة نفسها ليست سوى علاقة رياضية أو نسبة صالحة بين أجزاء الجسم أو عناصره ، أو أن النفس كانت هي الأخرى عددا ٠ ومن هذه النقطة شمت صوفية وتقشف فيثاغورس فذهب الى أن النفس تنقسم أقساما ثلاثة : الشعور واللقانة والعقل ، فالشعور مركزه القلب ، واللقانة والعقل مركزهما المخ ، وان الشعور واللقانة من صفات الحيوان والانسان على السواء ، أما العقل فيختص به الانسان وحده ، وهو خالد لا يفنى ٠

ويعتقد فيثاغورس ان النفس بعد الموت بفترة تتعرض للتطهير في الجحيم ، ثم تعود بعدها الى الارض وتدخل في جسم جديد ، ثم في جسم آخر ، وتمر عبر سلسلة من التناسخ لا تنتهي الا اذا كان

صاحبها قد عاش حياة فاضلة بعيدة عـن الشرور والشهوات ، منزهة عن الرذائل بأجمعها .

والجدير بالملاحظة ان فيثاغورس كان يروي لطلابه الحكايات عن عقيدة التقمص التي يبشر بها فيذكر لهم أن روحه قد تقمصت مرة جسم عاهر ، ومرة أخرى جسم البطل يوفوربوس ، وأنه يذكر بوضوح مغامراته أثناء حصار طروادة ، وانه قد تعرف في هيكل في أرجوس على الدرع الذي كان يلبسه في تلك الحياة القديمة .

ومما يـروى عن فيثاغورس أنه سمع مرة عواء كلب يتألم من الضرب ، فقام بسرعة ليحاول انقاذه والتخفيف عنه ، ولما حاول طلابه الاستفسار عن هذا الكلبوما الغاية منانقاذه؟قال لهم فيثاغورس: لقد عرفت من عواء هذا الكلب بأنه صوت صديق لي قد مات منذ فترة . ولم تكن نظريات فيثاغورس التقمصية الوحيدة التي ظهرت على المسرح العالمي، ولكن هذه النظريات عرفت قبله في آسيا ، وأفريقية، واحتلت مكانا مرموقا في قلوب الهنود وطقـوس أورفيوس في اليونان ، كما سيطرت على أحاسيس بعض الفرق الفلسفية في ايطاليا .

الفيثاغورية :

المدرسة العرفانية التي شيد معالمها فيثاغورس وفق أسس أخلاقية واجتماعية تدعو الى الابتعاد عن الشهوات ، والعزوف بصورة كلية عن الرذائل ، والانخراط في بوتقــة الخير والفضيلــة لتتطهر النفس ، وتعود مسرورة الى الكل الذي انبثقــت منه ، قد وضعت تفسيرا جديدا للوجود استمدته من التعاليم الدينيــة التي كانــت ترتبط بعبادة أبولو • ومن بعض المباديء الدينية الديلية ، التي عرفها فيثاغورس وأثرت تأثيرا كبيرا في مجرى حياته الفكرية • لذلك نراه يحاول القيام بحركة اصلاحية كبرى يقضي بواسطتها على الشلل الذي أصــاب التفكير اليوناني والروح اليونانية التي كانت خالية من كل أثر للدين وللعقائد التقليدية • وخاصة بعد سقوط المدن اليونانية في آسيا تحــت السيطرة الفارسية •

ولم يقتصر نشاط فيثاغورس على محاولة احياء مباديء الدين ، والأخذ بمنطلقات العقائد الآخية القديمة ، ديانة ديلوس ، ولكنه أنشأ مدرسته على أسس مكينة من الفضيلــة والزهد والتقشــف ،

والأخوة الحقة بين الرجال والنساء ، متأثرا بالديانة الأرفيوسية ، التي كانت معتقداتها تقوم على نظرية الجذب ، التي تعني الخروج ، أي خروج النفس من الجسد لتستعيد طبيعتها السرمدية الابدية ، ولن يتحقق لها هذا الخروج الا اذا تطهرت من الرذائل ، وابتعدت عن الشهوات ، وزاولت بعض الطقوس الدينية ، المتعلقة بالزهد والتقشف والصفاء الذاتي ·

ومن الطبيعي جدا في خضم التيارات الفكرية والدينية التي كانت تتصارع في بلاد اليونان أن تطل على الميدان الأورفية وتنادي أولئك الذين لم يجدوا الطمأنينة في آلهة الشعراء ، المتجسدين ، البعيدين عن البشر ، أو في أديان ومعتقدات الدولة نفسها ، أن يأتوا اليها فعسى أن تتحقق أحلامهم بالأمرين التاليين :

١ ـ العودة الى الوحي الكتابي ، أي الى الوحي المكتوب كمصدر للسلطة الدينية ·

٢ ـ الانخراط في المجتمعات التي نظمت للأفراد على أساس عدم وجود أي رباط من القربى أو الدم بينهم ، انما تجمعهم روابط القبول

والاختيار والايمان الديني المكرس •

وخلاصة المباديء الأورفية كما نصت عليها صفائح الأورفية الذهبية التي نقشت عليها هذه المباديء تنطلق من تخليص النفس من عجلة الميلاد ، ومن أي تقمص في الصور الحيوانية والنباتية ، فاذا ما تحررت النفس أصبحت مرة أخرى الها ، وتمتعت ببركة الهية دائمة •

واذا ما قلنا ان فيثاغورس قد تأثر بالأورفية لا نكون قد أصبنا كبد الحقيقة فحسب ، وانما نكون قد توصلنا الى نقطة هامة في جذور وأسس الحكمة اليونانية ، لأن هذه الأسس باعتقادنا مأخوذة الواحدة عن الاخرى ، وليست من ابداع أو اختراع حكيم واحد ، ولم يكن فعل الفيلسوف أو الحكيم سوى بلورة هذه الأسس وتطويرها وفق تقدم البيئة ، وتطور المجتمع الذي يعيش فيه •

ولا نستغرب أيضا أن نجد كافة الفلسفات العالمية مأخوذة الواحدة عن الأخرى ، في الاصل والمنشأ والمنطلق ، فالفلسفة الهندية أخذت عن اليونانية وأعطت لها ما هي بحاجة اليه من مرتكزات عقلانية ، وكذلك بالنسبة للفلسفة الفارسية ،

والاسلامية ، والغربية ، والشرقيــة الخ •• لذا لا يمكننا أن نهمل فلا نعترف بأن الفلسفة الأورفية قد نادت بأن الحكمة هي طريق للحياة الفاضلــة المطهرة من كل دنس وشهوة ، فجــاء فيثاغورس وطور هذا القول وبلوره حتى جاء منسجما مع مذهبه وهدفـه العرفاني في قضيــة الفضيلــة والتطهير والصفاء الذاتي •

وكما أخذ فيثاغورس بعض المنطلقات الأورفية كذلك تأثر فيها أفلاطون وردد هذا التأثير في نظريته الفيدونية ، وكذلك تأثر بها أرسطو ، وعبر عن هذا التأثير في كتابه عن الأخلاق ، وذكــر بنفس الوقت بأن خطر الأورفية قد ينتهي الى سكون مطلق ووجود آخروي بعيد عن هذا العالم •

ومن المؤكد أن أفلاطون قد شعر بهذا الخطر وحاول بكل الوسائل الابتعاد عنه ، ولذلك نراه يطلب من الحكماء والفلاسفة أن يأخذوا دورهم ، وأن يصعدوا مرة ثانيــة الى الكهــف ، ليساعدوا اخوانهم السابقين الأسارى ، أما اذا أدت عقيدة الفيثاغورية المتشحة بالأورفية الى الوجهة الاخرى من النظر ، اذا وصلت الى السكون المطلق والموقف السلبي ، فليس هذا ذنب الحكماء والفلاسفة •

وما دمنا قد وصلنا الى هذا الحد الذي يشتم منه أن الفلسفة ربما قد أصبحت دينا أو عقيدة دينية ، يمكننا أن نقول : من دون أي شك الفلسفة تأثرت بالعقائد والمنطلقات الدينية ، وقد تكون قد أخذت من الدين بعض المنطلقات الهادفــة الى الخير والفضيلة ، لأن الاحيــاء الدينــي يتضمن بعض المرتكزات عن النفس ، ومن المحتمل أو بالأحرى من المؤكد أن التأثير قد حدث ، وقد يكون عدم حدوثه شيئا غريبا بعيد عن التصديق ·

ونلاحظ ان فيثاغورس وأمبدوقليس اللذين شاركا بأنفسهما في الحركة الدينية يدينان بآراء عن النفس ، قد تختلف عن المعتقدات الدينيــة ، ولكنهما على ما يبدو قد بلورا وطورا هذه الآراء النفسية حتى توافق البيئة والمجتمع الذي يعيشان فيه · ولا ننسى ان سقراط أيضا قد نادى بخلود النفس منطلقا من الأسس العقلية التي بلورت الآراء الدينية وطورتها ، لأن الدين العتيق لم يكن سوى مجموعة من الطقوس تتطلب السير عليها بدقة ، وأن يكون السائر عليها تحت سيطرة فكرية مستقيمة · وكان العابد يعطي أي تحليل يريده لما يقوم به من عبادات ، ويؤدي من طقوس · هذا ما عبر عنــه

افلاطون في جمهوريته عن مفاهيم الدين القديم ، وكذلك أرسطو نفسه قرر أن الدين القديم لم يكن يتطلب من المريد أن يعرف أي شيء ، انما كان فقط يتطلب منه أن يكون في حالة تأثرية خشوعية تعبدية بشكل ما ، وأن يضعه في حالة عقلية معينة ٠

اكسانوفان :

عندما يتحدث الباحث عن فيثاغورس والفيثاغورية يجد نفسه مجبرا على التحدث عن صديق حميم وزميل كبير لهذا الحكيم وهو (أكسانوفان) الذي لعب دورا هاما في حياة فيثاغورس ، وساهم معه في ايجاد بعض النظريات الفلسفية والرياضية ، كما أنه بشر بالمذهب الميتافيزيقي بعد أن انفصل عن فيثاغورس ونقد بعض نظرياته ٠

وتذكر النصوص التاريخية ان ولادة الحكيم أكسانوفان كانت في قولوفون من أعمال أيونيا بالقرب من أفسوس ٠ وعندما اجتاح الفرس بلاده غادرها ليطوف في أنحاء البلاد اليونانية سنين عديدة الى أن وصل صقلية ، ثم انتقل الى ايطاليا الجنوبية واستقر في ايليا ٠

ولما كان أكسانوفان شاعرا ملهما ، وحكيما شريف النفس ، واسع التفكير ، عنيف النقد • فقد قام بحملات نقدية قاسية شملت كافة ما يلمسه من أخطاء في مجتمعه ، فوجه نقده الساخر الى الناس الذين كانوا يكرمون المصارعين فقال : « ان حكمتنا خير وأبقى من قوة الرجال والخيل » • وعندما قام أكسانوفان مع فيثاغورس بحملتهما لتنوير الاذهان ولاصلاح ما فسد من الأمور الدينية ، التي قبل فيها فيثاغورس وأنكرها أكسانوفان ، الذي كان أيونيا مثل فيثاغورس ، ولكنه واجه المشكلة الدينية بعنف أكثر من فيثاغورس وراح ينشد الشعر ناقدا الآلهة المتجسدة ، ساخرا منها ، ومن فيثاغورس زميله وصاحبه ، ومن نظريته في التناسخ ، وموجها اللوم العنيف الى طاليس ، وناقدا هيرودوث وهزيود •

ويقال أن أكسانوفان عندما سمع فيثاغورس يروي حكايته « عندما مر ذات يوم برجل يضرب كلبا ، فأخذته الشفقة ، فصاح وهو يبكي : امسك يا رجل عن ضربه ، انها نفس صديق لي ، لقد عرفته من صوته » استغرب أن يأتي صديقه وزميله بهذه الأفكار التناسخية السخيفة ، فابتعد عنه كلية

وارتفع بعقله النير فوق الحكايات والخرافات والأساطير ، ووجه جهده الى التفتيش عن نظام فعّال أرفع من التجارب المحسوسة ، ومن خرافات الشعب الجاهل المتقلب · ومن أهم أقواله النقدية في هذا المجال قوله : « ان الناس هم الذين استحدثوا الآلهة وأخافوا اليهم عواطفهم وصوتهم وهيئتهم ، فالأحباش يقولون عن آلهتهم انهم سود فطس الأنوف ، ويقول أهل تراقية أن آلهتهم زرق العيون حمر الشعور ، ولو استطاعت الثيرة والخيل لصورت آلهتهم على مثالها · وقد وصفهم هوميروس وهزيود بما هو عند الناس موضوع تحقير وملامة · الا أنه لا يوجد غير اله واحد ، أرفع الموجودات السماوية والأرضية ، ليس مركبا على هيئتنا ، ولا مفكرا مثل تفكيرنا ، ولا متحركا ولكنه ثابت ، كله بصر . وكله فكر ، وكله سمع ، يحرك الكل بقوة عقله وبلا عناء (١) » ·

ويتحدث أرسطو عن حكمة أكسانوفان فيقول : « انه نظر الى مجموع العالم وقال ان الاشياء جميعا

---

(١) ارسطو ما بعد الطبيعة م ١ ف ٥ ص ٩٨٦ ٤ ب ص ٢٠ — ٢٤ .

عالم واحد ، ودعا هذا العالم الله ، ولم يقلد شيئا واضحا ، ولم يبين ان كان العالم عنده واحدا من حيث الصورة ، أو من حيث المادة (١) » .

ومن الشذرات التي وصلت الينا من قصيدة أكسانوفان في الطبيعة ، يمكننا أن نستنتج بعض أفكاره الدينية والفلسفية ، التي نقد فيها أديان اليونان وغيرهم من أمم الارض ، كل أمة تصور آلهتها كما تشتهي ، وكل دين آلهته متجسدون ، يحارب بعضهم بعضا ، وفيهم صفات الانسان ونقائصه . لهذه الأسباب كان لا بد له من أن يبشر بوجود الـه واحد قديم غير محدث ، ثابت غير متبدل ، لا يمكن أن تنطبق عليه صفات البشر ، وهو لهذا منزه عن بصرنا وسمعنا وفكرنا ، انه الواحد ، والاعظم بين الآلهة والناس ، انه لا يتحرك ، ولكنه يحركنا .

ولم تقف حكمة أكسانوفان عند حدود الاله الواحد ، بل تعدته الى الوجود الواحد ، فراح يرد على السؤال الذي يقول : هل الله الواحد شيء ، والوجود الواحد شيء آخر ؟ وهل يجب أن يقول

---

(١) المصدر نفسه .

بوحدة الوجود . أي لا فرق بين الله والطبيعة فكلاهما واحد ؟ وهنا يقول أرسطو موردا نصا هاما : « ان أكسانوفان حين أشار الى مجموع العالم ، قال ان الواحد الـه ، فالعالم اذن واحد ، والواحد الـه . وهذا يعني أنه من أصحاب وحدة الوجود ، وأنه لم يصل الى تصور الالـه كما صورته الأديان المنزلة » .

ويبدو من هذه الاشارات ان أكسانوفان قد انتقل من نقده لأديان اليونان في صورتها التجسدية البشرية ، الى تأليه الطبيعة ، الى تأليه الوجود ، وهذا ما جعله يفتح الباب على مصراعيه أمام الوجود والمشكلة الميتافيزيقية ، فأصبح بحق أول من بشر بهذه النظرية بين فلاسفة اليونان . وسار على منهجه فيما بعد متصوفة وحدة الوجود . وهنا لا بد لنا من أن نتساءل هل العالم أو الكون عند أكسانوفان محدود أو غير محدود ؟ فالنصوص الشعرية التي تركها أكسانوفان فيها بعض التناقض والتضارب ، الذي حاول أرسطو أن يكشف السجف والأستار عنها،ولكنه لم يتمكن فأعلن أن أكسانوفان لم يقدم لنا بيانا واضحا عن هذه الفكرة ، غير أن ثيوفرسطس يرى أن الفيلسوف أكسانوفان ذهب

الى أن العالم محدود . ودليله على هذا قولـه ان العالم متساو في كل ناحية . ولكن هذا الاتهام غير واضح ، باعتبار ان أكسانوفان جمع بين الرأيين : فهو تارة يقول ان العالم كرة والكرة محـدودة ، وأحيانا يقول : وتغيـب الشمس في اللامحدود ، وأحيانا يرى ان الارض محدودة من أعلى ، بينما أسفلها غير محدود . وأحيانا يقول : ان الهـواء المتسع ينتشر الى أعلى انتشارا غير محدود . ولا ادري كيف تحل هذه المسألة ؟ أرض غير محدودة وهواء غير محدود في عالم له نطاق المحدود ؟ وهل بمقدورنا أن نقول : يجوز للشاعر أن يرى مـا لا يراه غيره ، فيردد كل ما يتفاعل في أعماقه مـن آراء وأفكار !!.

بارمنيدس الأيلي :

الحديث عن أكسانوفان واضع اللبنة الأولى في صرح الميتافيزيقيـة يقودنـا الى الحـديث عـن بارمنيدس مؤسس مذهب الوجود في صورته الأولى، والتلميذ النشيط الذي تأثر بمعلمه اكسانوفـان فآمن بوحدة الوجود ، ووضع كتابه « في الطبيعة » شعرا ، فكان أول من استخدم الشعر للتعبير عن أفكاره الفلسفية .

المصادر التاريخية لا تذكر سنة معينة لولادة ووفاة بارمنيدس ، ولكن الدكتور جعفر آل ياسين (١) يأخذ برواية أفلاطون التي يذكر فيها اللقاء الذي تم بين سقراط وبارمنيدس وزينون حيث وفد الأخيران منهم الى أثينا وكان بارمنيدس يبدو مهيب الطلعة يكاد شعر رأسه يستحيل كله بياضا ، ويقدر عمره حوالي الخامسة والستين . أما صاحبه زينون فيبلغ الأربعين عاما . واستقر بهم المقام في حي سيراميكوس ، واجتمع اليهما سقراط ، واستمع الى زينون وهو يقرأ بعضا من فقرات كتابه ، وكان سقراط يبدو يومذاك يافع السن غض الاهاب . ثم يعلق الدكتور آل ياسين على هذه الرواية فيقول : « والرواية بأسلوبها هذا تفرض حلا تقريبيا لولادة بارمنيدس هو عام (٥١٥ ق.م) باعتبار أن سقراط كان في العشرين من عمره عند اجتماعه بالرجل . وسقراط توفي عام (٣٩٩ق.م) فأقرب احتمال ان الاجتماع وقع عام (٤٥٠ق.م) فحسب ! (٢) » .

وينحدر بارمنيدس من عائلة غنية ذات نفوذ

---

(١) فلاسفة يونانيون ص (٦٣ ــ ٦٤) .

(٢) فلاسفة يونانيون ص ٦٤ .

واسع في طول البلاد وعرضها ، وكان مقر العائلة الدائم في ايليا على الشاطيء الغربي من ايطاليا • ساهم بارمنيدس بوضع تشريع قانوني لمدينته اعتبر نموذجا مثاليا للحكم الصالح • وكذلك اهتم بدراسة التيارات الفكرية التي كانت تتصارع في عصره ، وتتلمذ على الحكيم الفيثاغوري أميناس ، ولكن ليس للفيثاغورية أي تأثير على معارفه وفلسفته ، الا في بعض نظريات علم الفلك وأحكام النجوم ، ويقال أنه تأثر بالحكيم أكسانوفان ، وتعاونا في ايجاد بعض الافكار المرتبطة بالحقيقة الواحدة •

انطلق في حياته الفكرية مستخدما الشعر ، فنظم قصيدتين الأولى تتحدث عن الحقيقة والثانية حول الظن أو الشك ، ناحيا في نظمهما منحى سداسيا ، مما جعل أمبادوقليس فيما بعد يقلده ، ثم سار على منواله آخرون • ويلاحظ أن بارمنيدس قد ملأ شعره بالرموز والاشارات ، وعبَّر عن أفكاره العرفانية بأسلوب سهل لا يصعب فهمه واستيعابه على الجميع ، واستهل قصائده بالخيالات الأسطورية المجنحة التي تنقله في جولة طويلة تهدف الى المثول بين أيدي الآلهة في مكانها الأسمى ،ويعرج

في طريقه على مفاوز الليل والنهار ، وتبدو له الأبواب الذهبية العالية المقفلة باحكام ، فيصعب عليه الدخول ، ولكن العذارى الجميلات يخاطبن العدالة ذات البأس بالفاظ ساحرات عذاب طالبات فتح الأبواب الذهبية لضيف الآلهة الجديد ! عندما تنفتح أمامه الأبواب فيشاهد عالما عريض المدى طويل الصدى ، قادته العذارى خلاله على استحياء حتى وصل الى الآلهة ، فعلمت أنه جاء يبحث عن « طريق الحق » وعن الانسان وعن كل الاشياء ظاهرها وباطنها ، وبدأت الآلهة تلهمه عبرها الصادقات ، فأرشدته الى الطريق الصواب : « انظر بعقلك نظرا مستقيما الى الأشياء فان بدت لك بعيدة فهي كالقريبة ، ولن تستطيع أن تقطع بما هو موجود ، فالأشياء لا تفرق نفسها ولا تجتمع ، فكل شيء واحد من حيث البدء ، لأني سوف أعود الى المكان نفسه » ونصحته الآلهة أن ينهج نهجا واحدا هو الجدل لمعرفة الحد والماهية وليهديه هذا الأمر الى الطريق المستقيم الذي لا انحراف فيه ، لأن العقل والجدل دلالة واحدة في الوجدان ، وعند مماحكته الدليل والبرهان (١) ·

---

(١) فلاسفة يونانيون ص ٦٦ .

وأول ما يلفت النظر في فلسفة بارمنيدس أنه يرى أن هناك وسيلتين للبحث يمكن أخذهما مأخذ الاعتبار أولهما أن الموجود موجود ، ومن المحال أن يكون غير موجود ، وهذا يعني اليقين ، لأن الحق يلازمه . وثانيهما هو أن الموجود غير موجـود ، وينبغي اذن أن لا يكون موجودا . وهذا طريـق لا يمكن لأحد أن يتعلمه . لأننا لا نعلم ما هو غير موجود ، بل من المحال أن نتعلق به ، لأن ما نفكر فيه ، وما هو موجود شيء واحد .

ويرسم لنا أرسطو مذهب بارمنيدس فيقول : « أن الوجود موجود ، ولا يمكن الا يكون موجودا . أما اللاوجود ، فلا يدرك ، اذ أنه مستحيل لا يتحقق أبدا ، ولا يعبر عنه بالقول ، فلم يبق الا طريـق واحد ، هو أن نضع الوجود ، وأن نقول انه موجود. والفكر القائم على الوجود ، ولولا الوجود ، لما وجد الفكر ، لأن شيئا لا يوجد ، وان يوجد مـا خلا الوجود » .

ويلاحظ أن هناك فرق دقيق ولطيف جدا بين الاثنين . ففي الاول يتحدث عن الوجود ــ المادي الحسي ، ويرى ان أبرز صفاته هو الوجود ــ فهو

هنا حسي ، بينما الثاني يضع الوجود أولا • ويسوي بين الوجود والحقيقة • فهو مثالي أو أقرب الى المثالية • ويستخرج لأول مرة في تاريخ الحكمة اليونانية مبدأ الذاتية ومبدأ عام التناقض ، وبهذا كان أول واضع لمباديء المنطق الأساسية ، كما كان أول واضع لمباديء المشكلة الميتافيزيقية الاساسية •

ومن المؤكد أن نظرية الوجود قديمة ، لامتناع حدوث من اللاوجود لأن اللاوجود غير موجود ، ومن غير الممكن حدوثه في وقت دون آخر • وهذا يعني انه اما أن يكون محدثا لنفسه ، واما أن يحدثه غيره ، أما أن يكون محدثا لنفسه فهذا غير صحيح ، لأنه اذا كان هذا صحيحا ، فلماذا أحدث نفسه في وقت دون غيره ؟ اذن لا بد وأن يكون هناك دافعا جعله يفعل هذا في وقت دون وقت • ومعنى هذا أن هناك شيئا غير الوجود • ولكن خارج الوجود لا شيء البتة ، وأما أن يحدثه غيره وهذا محال ، لأن الغير هو العدم ، والعدم غير موجود ، والوجود بحد ذاته أبدي : يعني لا ينتقل من الوجود الى اللاوجود لأن اللاوجود عدم ، ولا يمكن لغير الموجود، أن يكون علة أو معلولا • وليس للوجود زمن • لا ماض له ولا مستقبل ، ولكنه في حاضر لا يزول •

ويرى أرسطو انه على هذا يمتنع الكون ، ولا يتصور للفساد ، وينتفي التغير · أي أن الوجود ثابت ساكن في حدوده ، مقيم كله في نفسه · اذ ليس خارج الوجود ما منه يتحرك ، وما اليه يسير ، أو بمعنى أوضح لما كان الوجود هو الكل فلا يمكن أن نضيف اليه شيئا جديدا لم يكن له من قبل ·

وحسب رأي بارمنيدس الوجود واحد ،والوجود والواحد متكافئان · ويلزم عن هذا أن الوجود واحد فقط متجانس مملوء كله وجودا ، فاذا لم يكن واحدا فمعناه أنه متعدد · ومعنى التعدد وجود شيء آخر غير الوجود ، يكون به التعدد · ولما كان ليس هناك غير الوجود ، فلا يوجد تعدد ·

واذا كان الموجود موجودا ، فالكون اذن ملاء · ولا يمكن خلاء على الاطلاق لا في داخل العالم ولا خارجه · وينتج عن هذا امتناع الحركة · لأنه ليست هناك قوة دافعة عند الواحد للتغير والصيرورة فلم يبق سوى أسلوب واحد هو أن نضع الوجود ، وأن نقول أنه موجود · والوجود هو تام التناهي والتعيين في جميع جهاته ، اذ لا يمكن أن يكون بعضه أقوى او أضعف من بعض ، مثله مثل كرة

تامة الاستدارة ، متوازنة في جميع نقطها · وبالجملة فالعالم واحد ، وهو الوجود بالاطلاق ·

ونلاحظ هنا أن بارمنيدس قد فكر بمعاني الوجود مجردا من كل مفهوم سوى هذا المفهوم الذي يعني الوجود بالاطلاق ، فأدرك أن الوجود واحد قديم ثابت كامل ، وان هذه الصفات لازمة من معنى الوجود · ففضّل هذا اليقين العقلي ، وأنكر الكثرة والتغير ، واعتبرهما وهما وظنا : أليس التغير يعني ان الموجود كان موجودا ولم يكن موجودا وأنه باق في الوجود ، ومع ذلك فهو ليس موجودا · أوليست الكثرة تعني ان كل وحدة من وحداتها هي وجود معين ، وليست وجودا ؟ اذ أن قولنا عن شيء انه ليس كذا، معناه أن هذا الشيء حاصل على اللاوجود، وهذا غير ممكن · ولكن بارمنيدس اعتمد الظواهر المحسوسة فقال ان الاشياء واحد في العقل ، كثير في الحس (١) · وبذلك انتقل من يقين العقل الى ظن الحواس ، وقبل الوجود واللاوجود في آن واحد ، وهو يعرف أن هذا القبول معارض للعقل ، ولكنه يعلم أيضا أنه أهون عند العقل من طريق الذين

(١) ارسطو : ما بعد الطبيعة م ١ ف ٥ .

يرون ان الوجود واللاوجود شيء واحد ، وهما ليسا شيئا واحدا •

وتخيل بارمنيدس الوجود الكامل غير المنقسم كرة مادية ، كما تصور الفيثاغوريون العدد ممتدا، وراح يروي الآراء والأفكار التي تذكر بحكايات هزيود وأقوال انكسيمندريس وانكسيمانس • ولا ندري اذا كان جدأ في هذه الروايات أو مغلوبا على أمره كما يقول أرسطو أم أنه يجمعه بين خيال هزيود وعلم الأيونيين فشاء أن يسخر من العلم الطبيعي ومن أصحابه ، وأن يؤيد القسم الاول فبيَّن ان العالم المحسوس لا يفسر بغير ما يتطلبه التغير من اجتماع الوجود واللاوجود ، وان هذا الاجتماع غير معقول وأن التغير وهم ؟

ويضيف يوسف كرم قائلا (١) : « ومهما يكن من هذه المسألة ، ومن تشخيص الوجود في كرة مادية متصلة هي مع ذلك واحدة غير منقسمة ، فان ميزة بارمنيدس أنه فيلسوف الوجود المحض ، تجاوز عالم الظواهر ، وعالم الأعداد والاشكال ، وبلغ الى الموضوع الاول للعقل وهو الوجود • ولقد بهره

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٣٠ .

معنى الوجود ، فلم يعد يرى غير أمر واحد هو أن ما هو موجود فهو موجود ولا يمكن الا يوجد • وأن الوجود موجود واللاوجود ليس موجودا ، ولا مخرج من هذه الفكرة أبدا • وكان أول فيلسوف جرّد مبدأ الذاتية ومبدأ عدم التناقض وأعلنهما صراحة، وجعل منهما أساس العقل الذي لا يتزعزع ، وفي نفس الوقت الذي كان هرقليطس يهوي فيه على هذا الاساس بكل قوته • واذا كان بارمنيدس لم يتذكر أن الوجود والواحد يقالان على أنحاء عدة ، ولم يفرق بين معانيهما المختلفة ، فعذره ان هـذه المعاني لم تكن قد تميزت بعد ، وهي لن تتميز الا على يد أرسطو • وحسبه فخرا انـه ارتفـع الى مباديء الوجود ومباديء العقل بقوة لم يسبق اليها، فأنشأ الفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا ، واستحق أن يدعوه أفلاطون بارمنيدس الكبير » •

ويبدو ان أفلاطون كان يعلم بأن بارمنيدس ينكر وجود المكان الفارغ فيقول : كان بارمنيدس يقول ان الاشياء واحدة ، وان الواحد في سكون في ذاته ، ولا يوجد مكان يتحرك فيه • بينما يـرى أرسطو ان بارمنيدس اعتنق فكرة ان الواحد ساكن،

لأنه لم يستطع انسان بعد أن يفكر أن هناك غير المحسوس .

والموجود موجود ، ولا يمكن أن يكون هناك أكثر او أقل ، ويوجد في هذا المكان كما يوجد في الآخر ، والعالم متصل ، غير منقسم ، ملاء كامل . ومن هنا كان غير متحرك . لأنه اذا تحرك يجب أن يتحرك في خلاء ، ولا يوجد خلاء . ان الوجود يملأ كل شيء ، ولهذا السبب انه معين ولا شيء خارجه . وانه كامل في ذاته ، ولا يوجد خارجه شيء . ان له مجالا . انه حقيقي في كل اتجاه ، وآفاقه محدودة .

وفي نهاية المطاف يمكننا أن نقول ان بارمنيدس أسس ميتافيزيقا وفق مداميك عقلية ومنطقيـة نورت الفكر الفلسفي وطبعته بطابعها العرفانـي لأجيال عديدة . ولم تقتصر أفكار هذا الحكيـم العبقري على الوجود والفكر ، بل تعداه الى الطبيعة والنفس . فكان يرى ان العالم مرتب على شاكلة أكلة مضفورة مركب بعضها على بعض ، ومنها ما هو مخلخل ومنها ما هو متكاثف ومنها ما هو مجتمع .

زينون الأيلي :

اذا ذكر بارمنيدس لا بد من أن يذكر تلميذه

ورفيقه زينون الذي رافق أستاذه في رحلته الى أثينا وقابل واياه سقراط ، ثم حمل أعباء نشر مذهب معلمه ومفيده ، ودافـع عنهـا في كافـة المجالس والمنتديات ، وحفظ فضل أستاذه طوال عمره ٠

يقول يوسف كرم (١) : « نكاد لا نعرف شيئا عن حياته سوى أنه ائتمر بطاغية مدينته ، فانكشف أمره ، فأذيق عذابا أليما احتمله بثبات عظيم حتى الموت ٠ واذا أخذنا برواية أفلاطون قلنا انه وضع كتابا في شبابه قصد به الى تأييد مذهب معلمه ضد الذين سخروا منه وحاولوا أن يبينوا أن العقـل بالوحدة يستتبع نتائج مضحكـة ومناقضـة لـه (وهؤلاء هم الفيثاغوريون الذين يؤلفون العالم من أعداد أي من وحدات منفصلة) ٠ فحارب أصحاب الكثرة بان ألزمهم المحالات ، وبيَّن أن لمذهبهم نتائج هي أدعى للضحك ٠ فهو قد نهج منهجا جدليا بحتا يقوم على برهان الخلق ، ويرمي الى افحام الخصم ٠ ولم يصل الينا من المعلومات ما يكفي لتكوين فكرة مضبوطة عن كتابه وترتيب أقواله ، ولكن أرسطو

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٣٠ .

أورد بعض حججه في امتناع الكثرة والحركة (١) »٠

ويقول الدكتور جعفر آل ياسين (٢) : « تعتور دراسته صعوبات جمة ذلك لأن التاريخ العام ضنين في التحدث عن سيرته وشخصه ضنة تحسبها متعمدة٠ ويلتحف متحناه الشخصي غموض وابهام بحيث يعسر معه معرفة تطوره الذاتي الذي واكب مذهبه خطوة فخطوة باعتبار أنه معاناة وتجربة صادقة لحياته الخاصة ٠ وكان ضمن مجموعة المغمورين في حنايا التاريخ حتى عصورنا المتأخرة ، لا يهتم بافكاره الا صفوة الباحثين الذين أدركوا الغور البعيد الذي دفع به الى تقديم معضلاته عن الوجود٠ ويرتبط تاريخه العام غالبا باسم أستاذه بارمنيدس حيث يشرح لنا أفلاطون علاقة زينون بأستاذه في محاورة (بارمنيدس) شرحا روائيا جذابا ٠ويميل بعض الباحثين الى اعتباره من نسيج خيال أفلاطون وشاعريته ! ومهما يكن فتلمذته على يد بارمنيدس لا ترتفع اليها الريبة مطلقا ٠٠٠ » ٠

ومن المؤكد تاريخيا وفلسفيا أن زينون قد

---

(١) السماع الطبيعي م ٤ ف ٣،١ — م ٦ ف ٢ ، ٩ — ما بعد الطبيعة م ٣ ف ٤ .
(٢) فلاسفة يونانيون ص ٧١ .

تتلمذ على بارمنيدس وشاركه في آرائه عن وحدة الوجود ، كما دافع عن معلمه ونقض حجج معارضيه وخصومه ، مستخدما سلسلتين من الحجج ، واحدة ضد الكثرة ، والأخرى ضد الحركة • ومع أن مؤرخي الفلسفة جربوا التمييز بين الحجتين ، ولكن لم يعترفوا صراحة بوجود أي رباط ضروري بينهما • فاذا كان زينون يرفض وجود الحركة ، فانه انما فعل ذلك بقصد نفي الكثرة • اذ من المؤكد ان الحركة تتطلب المكان والزمان ـ وهما امتدادان عنده ـ ولما كان الامتدادان غير مركبين ـ أو على حد تعبير زينون غير متعددين ـ فان الحركة فيهما غير ممكنة ، وهي اذا كانت حقيقة تقسم الزمان والمكان التي تكون فيهما ، فلا يمكنها اذن أن تنتج في امتداد بدون أجزاء ، واذا كان للزمان والمكان أجزاء ، أي اذا كان الامتداد مكونا ، فانه ينتج ، اما أن هذه الاجزاء منقسمة الى ما لا نهاية ، واما أنها عناصر منقسمة • ثم ينقض زينون أولى هذه الافتراضات بالحجج المنطلقة من القسمة الثنائية ، كما أنه ينقض الافتراضات الثانية بحجة السهم وحجة الملعب •• وتكون الحجج الاربعة قياسا محرجا • وأول من أظهر هذا رينوفييه ، غير أنه

أهمل الحجة الاخيرة ـ حجة الملعب ـ ولكن بروشار يرى أن هذه الحجة التي كانت مصدر حيرة وشك لكثيرين من مؤرخي الفلسفة ، ذات صلة وثيقة بالحجج السابقة ، وأنها تكمل الدليل •

ويرى البعض ان الحجج الاربعة تؤلف مذهبا متناسقا تناسقا عجيبا ، فالحجة الأولى والرابعة تبحثان الامتداد والحركة بين حدود معينة • والرابعة والثالثة تبحثان الامتداد والحركة في أطوال غير معينة • والأولى والثانية تبحثان في تعذر تحقيق الحركة ، فينتج أن بدء الحركة في نفسها ممتنعة • والثانية والرابعة تظهران بمقارنة شيئين متحركين في حركة تناقض فرض الحركة الى أقصى حد ، وتثبتان أن الحركة ، حتى ولو بدأت ، لا يمكن استمرارها ، وتؤيدان استحالة الحركة النسبية ، كما تثبتان استحالة الحركة المطلقة •

الحجج الأربعة :

اذا رجعنا الى مصنفات أرسطو نرى أنه قد أتى على ذكر حجج زينون الاربعة وقسمها الى مجموعتين

كل مجموعــة في حجتين (١) : المجموعــة الأولى : نفترض أن المكان والزمان منقسمان الى ما لا نهاية، ولكن النصوص في الحقيقة لا تذكر صراحة هــذا الافتراض ، ولكن يمكن أن نقول انه متضمن في الحجتين الأوليتين :

١ ــ القسمة الثنائية : لا حركة ، لأنه ينبغي أن يصل الشيء المتحرك الى نصف المسافة قبل أن يصل الى النهاية • ويجب أن يعبر نصف النصف قبل أن يصل الى الوسط • وهكذا الى ما لا نهاية •

٢ ــ أخيل : الأبطأ لا يمكن أن يصل اليه الأسرع لأنه ينبغي قبلا أن من يحاول أن يتبع ، يصل الى نقطة ينتقل منها السابق ، بحيث أن الأبطأ سيكون متقدما بالضرورة ، فأخيل ذو الاقدام الخفيفة لن يصل الى السلحفاة • واذن من المستحيل الوصول الى غاية أو نهاية ، اذن فلا حركة •

المجموعة الثانية : نفترض الامتداد مكونا من عناصر غير منقسمة ، فان أرسطو يرى فيما يتعلق بالحجة الثالثة افتراض أن الزمان مكون من آنات :

---

(١) أرسطو : ما بعد الطبيعــة م ٣ ف ٤ •

١ ـ السهم : يقول نص أرسطو يكون الشيء في سكون أو في حركة حين يكون في مكان مساو لنفسه ، والسهم الذي يتحرك هو دائما ساكن في الآن ، فهو اذن ساكن دائما • وهذا يعني ان السهم يتحرك في الآن ، لذا فمن المفروض أنه منقسم ، لأنه اذا غير موضعه فان الآن يكون منقسما ، ولكن الشيء المتحرك في الآن ، اما في سكون واما في حركة ، ولما كان الزمان على فرض ليس مكونا الا من آنات ، فان المتحرك دائما في سكون وهذا يعني ان المتحرك دائما اما في سكون واما في حركة حين يكون في مكان مساو لنفسه •

٢ ـ الملعب : وهي الحجة الرابعة المتعلقة بسلسلتين من الاجزاء المتساوية التي تتحرك في الملعب في اتجاه مضاد ، ماضية أمام السلسلة الثالثة من الاجزاء المتساوية ، ومنطلقة الواحدة من وسط الملعب ،والأخرى من نهايته بسرعة متساوية• ومن هنا يستنتج زينون أن الزمن الذي انقضى في ذلك مساو لضعف نفسه •

وهذه الحجة تقوم كذلك على فرض أن الزمان مؤلفا من آنات غير متجزئة . والمكان مركبا من

نقطة غير منقسمة ، لنفرض ثلاثة مجاميع كل منها مؤلف من أربع وحدات أو نقط ، والثلاثة متوازية في ملعب ، أحدها يشغل نصف الملعب الى اليمين ، وآخر يشغل نصفه الى اليسار ، والثالث في الوسط . ولنفرض الاول والثاني يتحركان بسرعة واحدة كل منهما الى الجهة المقابلة ، بينما الثالث ساكـن في مكانه : فان الواحد منهما يقطع طول الآخر في زمن هو نصف الزمن الذي يقضيه لقطع طول الساكن ، أي أن الانتقال من احدى نقط المجموع الساكن الى النقطة التي تليها يتم في آن هو ضعف الآن الذي يتم فيه الانتقال من احدى نقط المجموع المتحرك الى النقطة التي تليها ، فتقطع الحركة نفس المسافة (كون طول المجاميع واحد) في زمن معين وفي ضعف هذا الزمن ، فيكون نصف الزمن مساويا لضعفه ، هذا خلف ، واذن فالحركة وهم .

ويبدو ان زينون يتجاهل ان كل واحد مـن المجموعين المتحركين يوفر بحركته نصف المسافـة على الآخر ، بينما المجموع الساكن يبقيها علـى حالها ، وان هذا هو سبب الفرق في الزمن . كما انه يتجاهل ان المكان والزمان والحركـة أشيـاء متصلة ، وانها مع قبولها للقسمة الى ما لا نهايـة

ليست مقسمة بالفعل الى أجزاء غير متناهية · وفي رأينا أنه لم يتجاهل ذلك عن قصد نقد المقدار المتصل ، والمقدار عنده خاصية من خواص الوجود· بل الى نقد المقدار المنفصل كما توهمه الفيثاغوريون فجاءت حججه كما يقول أفلاطون لهوا جديا (١) ·

ويرى بعض مؤرخي الفلسفة ان حجج زينون بكاملها لا يمكن تفنيدها و نقضها ، رغم ان كثير من الفلاسفة والرياضيين حاولوا بشتى التعليلات والاستنتاجات نقضها ، ولكن معظم هؤلاء النقاد ابتعدوا في نقدهم عن المسألة ابتعادا ملحوظا ، أو على الأقل لم توضع في الحدود التي وضعها فيها زينون ·

ولما حاول أرسطو نقض القسمة الثنائية أو أخيل التي تقول أن الزمان هو كالمكان منقسم الى ما لا نهاية ، وأنه لا استحالة في انتقالنا في أشياء غير محدودة في زمن غير محدود · ابتعد عن المسألة ابتعادا ملحوظا · لأن زينون كان يعلم تماما ان استدلاله يتطلب ذلك ، لأن المكان والزمان يتكيف

---

(١) افلاطون : محاورة بارمينوس ص ١٣٧ .

الواحد منهما كالآخر ، وأنهما الاثنان منقسمان جميعا وعلى الدوام وبالتشابه الى ما لا نهاية .

والناقد الأخير الذي عالج هذه المسألة هو دينان الذي خالف القسمة العامة الشاملة ، وقال أنه يجب أن نفصل القسمة الثنائية وأخيل ، لأن الأولى تبدو بعيدة عن كل نقد ، أما الثانية فهي حجة سوفسطائية . فهو يرى اذا كانت الحركة مستحيلة في الواقع كما تظهر القسمة الثنائية ذلك ، فمن اللحظة التي تمنح فيها الحركة لأخيل والسلحفاة لا شيء يمنع من أن نفترض لأخيل سرعة كبيرة يمكنه بها في الوقت عينه أن يقطع أولا المسافة التي تفصله عن السلحفاة ، ثم المسافة التي قطعتها السلحفاة ، وأخيرا مسافة أكبر . ولكن لكي يصل دنيان الى هذه النتيجة افترض أن المكان حيث أنه منقسم الى ما لا نهاية ــ كما تفرض الحجة ذلك بوضوح ــ فان الزمان ينقسم الى آنات غير منقسمة في عدد محدود . ولكن لا شيء في النص يوحي بهذا الفرض ويدعمه ، فالنص هنا يحمل على الجزم بأن الزمان في هذه الحجة ــ كما في القسمة الثنائية ــ منقسم كالمكان ، أما القول بتأكيد أن هذا التصور

ملزم ، طالما قبلنا حقيقة الحركة عند أخيل ، ففيه تجاوز كبير وغلو في الأخذ بفرض الحركة التي فرضها زينون فرضا مؤقتا ـ فاذا ما كان زينون قد بدأ بافتراض أن أخيل والسلحفاة في حركة ، فمن الواضح أنه في موقف يحرم فيه البلوغ الى نتيجة تنكر امكانية الحركة ، ولكنه يستخدم هنا قضية أو حكما ، أو اذا أردنا الكلام بدقة ، حيلة مسموحا بها « الحركة ممتنعة » وهذا ما تثبته القسمة الثنائية ، ومع ذلك فلنفرض أنها ممكنة في لحظة ، فاننا نصل الى متناقضات أخرى ،فالأسباب التي تمنع بدء الحركة ، تمنع كذلك استمرارها • اذن القسمة الثنائية تكمل أخيل ، أو أنها هي الفكرة نفسها معروضة في صورة كما يراها أرسطو أكثر مادية ، وأكثر ادراكا •

أما الحجتان الأخريتان فقد نوقشتا مناقشة أقل من مناقشة أخيل ، فكانتا ترفضان ولا تقبلان ، واعتبرتا حجتين سوفسطائيتين ، ولكن لم تفهم حجة السهم فهما كافيا ، فاذا أخذناها بمعناها الحقيقي فلن نقبل ما يعترض به عليها • وانه من الواضح أنه ليس أسهل في شرح الحركة اذا ما افترضنا الأشياء غير منقسمة ، ليس أسهل من أن تكون خطا

بواسطة نقط أو امتدادا بآنات ، ولكن ثمة اختلافا أفاد منه زينون افادة كاملة ، وهو أن النقطة ليست نفيا للخط ، ولا الآن للامتداد ، بينما السكون في وضوح هو نفي للحركة - فهل من الممكن أن نجيب على زينون ؟

تعددت الاجابات ، وليس بمقدورنا أن ننفي الحجة ، ولكن هناك بعض من يتجه الى انكارهـا انكارا تاما ، والرد القاطع عليهم أنه اذا كان علينا أن نعتبر زينون سوفسطائيا لأنه وضع هذه الحجة السوفسطائية ، فاننا سنتهم بنفس التهمة فيلسوفا آخر بعيدا عن السوفسطائية هو باسكال حسب رأي الدكتور النشار (١) ٠

والنشار بعد أن يدلي بهذه الآراء يصل الى حجة الملعب فيقول : فاذا كان التفسير الذي أعطيناه لها صحيحا ،فانه يتحقق تماما أننا يمكننا دائما بواسطة الحركة أن نقسم آنا مفروضا أنه غير منقسم ٠ وهذه الحجة نفسها التي أثبت لينبتز بواسطتها أن تصور أسرع حركة ممكنة هو تصور متناقض ، فاذا ما فهمنا حجة الملعب بهذا الشكل ، فانها تكون لحجة

---

(١) ديموقريطس صفحة ٣٢٧ .

السهم كالخيل الى القسمة الثنائية ، ان زينون يعرض لهذه الحجة نفسها في صورة أكثر مادية وأكثر مزاحا ، ووصل بعض مؤرخي الفلسفة الى أن هذه الفكرة العامة الشعبية والمازحة انما وضعت لتدعيم فكرة عميقة ، وهذا يبين لنا السر فيما ينسب الى الحجة والى مؤلفها من سخرية عميقة ، ولم يكن زينون يعلم أنه في المسائل الميتافيزيقية لا ينبغي أن نكون مازحين قط ، وقد كان زينون يقدر أن مزاحه سيكون شؤما عليه وعلى فلسفته ٠

وبمقدورنا أن نستوعب هذه الآراء اذا لاحظنا بعض ما ورد في محاورة بارمنيدس حيث يقول مخاطبا سقراط : « انك لم تر أن كتابي ليس ادعاء ، وأنه لم يؤلف للغاية التي تظنها ، لا أقصد مما يحتويه سرا ، ولكنك قد رأيت تماما أنه دفاع عن بارمنيدس ضد من يهاجمونه بالسخرية والنكات ، مدعين أنه اذا كان الموجود واحدا ، فانه ينتج عن ذلك نتائج مضحكة ومتناقضة ٠ وان كتابي يجيب على أنصار الكثرة ويردهم بطريقتهم في لباقة ، يريهم أنه تنتج أشد ضحكا ، من فرض الواحد اذا ما بحثنا الأمر بانتباه فلكي أدعم المسألة وأثبتها كتبت كتابي هذا في شبابي ، فأنت اذن

مخطيء يا سقراط حين تعتقد أنني لم أكتب هذا الكتاب في شبابي لحب الجدل ، وانما للرغبة في الشهرة والطمع فيها في سن مبكر » .

ويذهب برجسون وهو يتحدث عن موقف زينون الى أنه ناتج عن الالتباس بين الحركة والفضاء ، لأن المدى الذي يفصل مركزين من المراكز يقبل التجزئة دائما . ولو كانت الحركة مؤلفة من أجزاء كأجزاء المدى عينه لما قطعت المسافة - ولكن الحقيقة هي أن كل خطوة من خطوات (أخيل) فعل بسيط لا يتجزأ - لذلك يسبق أخيل السلحفاة بعد مرور عدد محدود من هذه الأفعال .

ولما كان الفضاء خاضعا للتجزئة والتركيب ثانية وفقا لأي قانون ما ، فقد أجاز الايليون أن يركبوا حركة أخيل المجملة ثانية ، ليس بخطوات أخيل بل بخطوات السلحفاة . وهكذا أقاموا محل (أخيل الراكض وراء السلحفاة دائما) سلحفتين مقيدتين بعضهما ببعض لا تخطوان الا الخطوات ذاتها ، ولا تقومان الا بأعمال متعاصرة بحيث أنهما لا تدرك الواحدة الثانية - ولكن لماذا سبق أخيل السلحفاة ؟ ذلك لأن كل خطوة من خطواته وخطوات

السلحفاة انما هي أفعال لا تتجزأ من حيث أنها أفعال ، ومقادير من حيث أنها فضاء • والجمع لا يتأخر عن أن يعطي الفضاء الذي تعبره السلحفاة مع الأسبقية التي منحتها عليه ، لذلك لم يهتم زينون بهذا عندما ركب ثانية حركة أخيل وفقا للقانون ذاته الذي ركب به ثانية حركة السلحفاة ، ناسيا أن الفضاء يمكن تفكيكه وتركيبه أيضا بطريقة اختيارية ، وهكذا مزج زينون الحركة بالفضاء •

والنتيجة التي نحصل عليها من كل هذا النقاش هو أن حجج زينون لا تنفي وجود الامتداد ، وانما تنفي تكوين هذا الامتداد ، لذا لا ينبغي أن نقول انه كل ، لأنه ليس له أجزاء ، فهو في جوهره واحد • ولكن يبدو أن هذه الوحدة المطلقة لم تمنع الايليين من اعتبار الموجود كمتصل ، ومن ثمة كممتد •

وهنا لا بد لنا من أن نتساءل هل بمقدورنا أن ندرك الامتداد كأنه غير منقسم ؟ وهل لدينا حق في أن ننسب مثل هذا التصور الى جدلي مثل زينون ؟ قد نقع في دوامة من التردد اذا لم نجد شعورا شبيها بهذا لدى مفكر مثل اسبينوزا • وزينون كما هو معروف رائد السفسطة بلا منازع ، فقد حاول

أستاذه ومعلمه بارمنيدس أن يثبت أن الوجـود واحد ، وحاول زينون التلميذ النجيب أن يثبت أن الكثرة متعذرة أو مستحيلة ، ووضع الجدل علما أو شبيها بالعلم ، فهو أيضا أبو المنطق ، أوجـد مجموعة من التأملات المنطقية التي لا تزال حيـة خالدة مدى الدهور والأجيال .

وقبل أن ننهي حديثنا عن زينون لا بد لنا من ايراد هذه الرواية التي تدل دلالة واضحة على مدى صلابة وصبر هذا الحكيم الكبير : « يقال أن زينون قد اشترك مع جماعة من مواطنيه في مؤامرة لقلب نظام الحكم وابعاد نيركوس أمير ايليا عـن منصبه ، ولكن أحدهم أفشى سر هذه المؤامرة ، فقبض على زينون وأودع السجن ، ولقي في سجنه كثيرا من التعذيب والتنكيل بغية اضعاف ارادته حتى يبوح بأسماء رفاقه المشاركين في هذه المؤامرة، ولكنه رفض بكل شمم واباء أن يبوح بكلمة واحدة، وخشي أن ينهار أمام هذا التعذيب ، فمد يـده بالموسى الى لسانه وقطعه حتى يصبح أبكم لا ينطق، وقويا لا ينهار » وان كنا لا ندري مدى صحة هذه التراجيدية فانها دليـل واضح على مدى صبـر وجلادة هذا الفيلسوف الحكيم .

ميلسوس :

هذا تلميذ آخر من تلامذة بارمنيدس كان له شان كبير في قيادة حملة ساموس ضد أثينا في معركة ضروس حيث تحقق النصر على يديه ، وشارك أيضا في معارك أخرى انتصر فيها على بريكليز كما يحدثنا أرسطو بالذات · وهو أيوني المنشأ ، ايلي الفكر والاتجاه ، ظهر نبوغه وعبقريته في الأولمبياد الرابع والثمانين · ويقال بأنه كان أمير البحر على عمارة ساموس عندما انتفضت على أثينا ، فانتصر على عمارة باركليس · كان يجمع بين العلم والعمل كمعظم فلاسفة عصره الذين كانوا يفكرون في الوجود ويشتغلون بالسياسة والاقتصاد · وضع كتابا في الطبيعة دافع فيه عن مذهب معلمه بارمنيدس لا ضد الفيثاغوريين كما فعل زينون ، بل ضد مواطنيه الأيونيين · فهو ممثل المذهب الايلي في أيونية وآخر رجاله ·

آراء ميلسوس الفلسفية :

تنطلق معارضة ميلسوس ومناقشته للأفكار الايونية القائلة بالكثرة والتغير من أنه لو كانت الأشياء وكيفياتها حقيقة على ما تظهر في الحس ،

ولو كان هناك حقا تراب وماء ونار وذهب وحديد وأبيض وأسود ، لوجب أن يبقى كل منها على حاله بدون تغير ، اذ ان ما يتغير يبطل أن يكون هو هو ، وكيف نصدق ان شيئا هو بارد بعد أن نكون صدقنا أنه حار ؟ ولو صح التغير لكان معناه ان الوجود ينعدم ، وان اللاوجود يظهر ، والوجود أيضا ثابت ، فهو لا يشعر بحزن أو ألم ، لأن هذا معناه زيادة شيء ، ونقصان شيء ، وهو محال • والحركة عامة ، والتخلخل والتكاثف على الخصوص ، محال ، لأنهم يتضمنون وجود مكان خال • والقسمة مستحيلة أيضا لنفس الاسباب •

والوجود عند ميلسوس غير جسماني ، ولكن هل نقبل هذا ببساطة من أيوني • لقد شك أرسطو في هذا فقال : « ان وجود ميلسوس جسماني • ولكن هل حقا وجود ميلسوس جسماني بالرغم من أنه يقول انه واحد ، ولذا لا يمكن أن يكون جسما ، لأن كل جسم له أجزاء ، أي متعدد • وان صح ان ميلسوس قال بعدم جسمية الوجود وهو تلميذ بارمنيدس المادي ، فتكون الخطوة الكبرى في تاريخ الفلسفة •

ويستتبع عدم جسمية الوجود عـدم نهائيته ، وهنا يعارض الفيثاغوريين اذ أن هؤلاء يقولون بالوحدات النهائية • ويرى أن الوجود غير متكثر لأن الحواس هي التي تقدم الكثرة • وهي بهذا لا تقدم لنا حقائق ، ان الحقيقة واحدة ، فلماذا تختلف فيها الحواس • اذن يجب أن لا نعتمد على الحواس • ولكن اذا كانت الحواس متغيرة، ومعطياتها متغيرات، فماذا يبقى للانسان ؟ لذا نرى ان ميلسوس يعبد المسالك السوفسطائيـة لتقوض معـالم الفلسفـة وتحركها •

والذي نلمسه من فلسفة ميلسوس أنه منـح الوجود صفة الانطلاق واللانهايـة ، بينمـا ذهب أستاذه الى تأكيد مبدأ الوحدة • يضاف الى هـذا رأيه بأن المطلق من حيث الزمان مطلق كذلك من حيث المكان ، أي لا متناه ، ولكن ميلسوس لم يبرهن على صحة الانتقال من المعنى الاول الى المعنى الثاني بل ترك الأمر على عواهنه • كذلك نراه يخرج من اللاتناهي الى السكون مع أنه يمكن تصور الوجود اللامتناهي يتحرك في مكـانه • وهو يختلف مـع بارمنيدس في نقطة أخرى ، هي أنه جرد الوجود من الجسمية الكثيفـة ليسلب عنـه التجزئة ويصون

وحدتـــه ، دون أن يبين كيــف يصـــح ألا ينقسم اللامتناهي في المكان مهما كان لطيفا • وهناك فرق أخر يقربه من أكسانوفان ، هو أنه يضيف للوجود حياة عاقلة ، فدل بهذا على ميله الى وجود روحاني أرقى من وجود معلمه بارمنيدس (١) •

ومما لا شك فيه ان هذا الحكيم العبقري يختلف عن أستاذه في أنه جعل الوجود لا متناهيا ، وذلك حين عارض فيثاغورس ، ان القديم ، المطلق من حيث الزمان ، أبدي ولا متناه أي مطلق أيضا ، من حيث المكان •

لقد أكمل ميلسوس تعــاليم وأفكار المدرســة الأيلية ، وكان آخر ممثل لها في أيونيا • وقد تمكن من النهوض بها بعنف وشموخ ، في خضم تيارات قوية من الخصومة والمعارضة ، وفي أفكاره تلمس الخلق والابداع والطرافة ، كسب قصب السبق على معلمه وفاق زميله الجدلي زينون • ونسبت اليه كثير من المصنفات عن طريــق المتأخرين من المشائين •

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٣٤ .

السوفسطائية :

اذا غصنا في أعماق التاريخ اليوناني لنستطلع خفايا وأسرار تطور الفكر وأعمال ونشاط حكماء وفلاسفة بلاد اليونـان نلاحظ ان الجمود الديني كان في عاصمة البلاد أثينا أقوى وأصلب منـه في المستعمرات وبقيـة المدن التـابعة للامبراطورية اليونانية ، وذلك لانفصال هذه المستعمرات جغرافيا عن البلد الأم ، مما سبب في خلخلة قيود التقاليد العتيقة . واذا قلنا ان أثينا كانت متصلبة قاسية لا مجال فيها لحرية التفكير نكون قد أصبنا الهدف ، هذا ما كان السبب في ابتعاد أصحاب الآراء الحرة عنها ، لـذا لم يأتيهـا أي حكيـم مـن حكمـاء السوفسطائيين (١) .

وقد كانت المناقشات التي تدور في الجمعية ، والمحاكمات التي تجري أمام الهيليا ، والحاجـة المتزايدة الى القدرة على التفكير تفكيرا منطقـي ظاهر ، والى التعبير عن الافكار تعبيرا واضحـا مقنعا ، لقد كانت هذه الأمور كلها مضافة الى ثراء

(٢) قصة الحضارة : ول ديورانت جـ ٢ ص ٢١١ .

المجتمع الامبراطوري وتشوفه عاملا في اشعار الناس بالحاجة الى شيء لم يكن معروفا في أثينا قبل بركليز ، نعني بذلك الدراسة العليا المنظمة للآداب ، والخطابة ، والعلوم ، والفلسفة ، وأساليب الحكم ، والسياسة • ولم تقابل هذه الحاجة في بادىء الأمر بتنظيم الجامعات ، بل قوبلت بوجود طائفة العلماء الجوالين يستأجرون قاعات المحاضرات ، ويدرسون فيها ما يضعونه من مناهج تعليمية ، ثم ينتقلون الى مدن أخرى ليعيدوا فيها هذه الدراسة • وهؤلاء هم السوفسطائيون الذين ملأوا النصف الثاني من القرن الخامس •

وكان على رأس هؤلاء بروتاغوراس ، وغورغياس - وكانوا يلقبون أنفسهم سوفسطائي أي معلمو الحكمة ، وكان معنى سوفسطائي يدل على التحقير في عهد سقراط وأفلاطون ، لأن السوفسطائيين كانوا من عشاق الجدل والمغالطة يتاجرون بالعلم - وكانوا يفاخرون بتأييد القول الواحد ونقيضه على السواء وبايراد الحجج الواهية الجميلة الشكل ، الحسنة المنظر ، في مختلف الأمور والمواقف • ومن كانت هذه أهدافه ومنطلقاته فهو لا ينهد الى اظهار الحقيقة ، بل يخلب الألباب ،

ويخدع الجماهير ، بتأثير الكلمات الخطابية المنمقة، والألفاظ المؤثرة ومعانيها ، والقضايا وأنواعها ، والحجج وشروطها ، والمغالطة وأساليبها ، فخلفوا في هذه النواحي الثقافية أثرا جديرا بالاهتمام ، أما سائر العلوم فكانوا يلمون بها الماما يؤيدهم عند الاستنتاج والمغالطات ، ويساعدهم على التبجح والتظاهر بالمعرفة • لذا نراهم يتعرضون بالنقد والجدل لكافة المذاهب الفلسفية ، والاجتماعيـة ، والأخلاقية ، ويزرعوا الشك في الأمور الدينية ، ويسخروا من الشعائر والطقوس ، ويختلقوا على الآلهة الرواياتوالأحاديث الكاذبة الملفقة،ويمجدوا القوة والغلبة ، فأدت هذه التصرفات الغير منطقية الى سوء سمعتهم ، واتهامهم بالسفسطة بقصد كسب المال ، لأن ما كانوا يتقاضونه من مال نظير تعليم المنطق والبلاغة لم يكن يطيقه الا الاغنياء الذين أفادوا من علمهم هذا في دور القضاء •

وعلى هذه الصورةالبشعةاستغل السوفسطائيون العلم وهبطوا به الى درك التجارة والكسب الغير مشروع ، ولم يعتبروه هدفا مقدسا ينهد الى نشر المعرفة بين الناس ، والى صقل العقول وتنويـر الأذهان ، بل استخدموه كوسيلة لجر منافع مادية

بعيدة تمام البعد عن العلم والارتزاق ، فكان هذا الأسلوب السخيف وصمة عار في جبينهم لا تـزال تلاحقهم حتى هذه الأيام ·

ولم يقـف سقراط موقف المتفرج مـن هؤلاء التجار بل أعلنها عليهم حربا لا هوادة فيها ، كمـا هاجمهم أرسطو وعرف السوفسطائي بأنه الرجـل الذي لا يحرص الا على أن يثري من وراء التظاهر بالحكمة ، واتهم برتاغوراس بأنه يعد الناس بجعل أسوأ الاسباب يبدو كأنه أحسنها ·

ويعلق ديورانت على هذه المأساة فيقول (١) : « وكان شر ما في هذه المأساة أن كلتا الطائفتين كانت على حق · فالشكوى من الأجور كانت غير عادلة · ذلك أنه لم تكن ثمة وسيلة غيرها يستطاع بهـا الانفاق على التعليم العالي الا اذا أمدته الدولـة بالمال ، واذا ما انتقد السوفسطائيون التقاليـد والاخلاق السائدة في عصرهم فلم يكن ذلك بطبيعة الحال عن سوء قصد فقد كانوا يظنون أنهم بعملهم هذا يحررون الناس من رق العقول ، وكانوا بهذا الوصف وهم الطبقة الراجحـة العقـل في زمانهم

---

(١) قصة الحضارة جـ ٢ ص ٢٢٠ ·

يتصفون بما يتصف به أهل ذلك الجيل من شغف بالحرية العقلية ، وقد فعلوا ما فعله علماء الموسوعات في عصر الاستنارة في فرنسا اذ انقضوا على الماضي الميت انقضاضا جديرا بالاعجاب فاكتسحوه أمامهم دفعة واحدة ·

ولم يطل عمر هؤلاء ، أو لم يكونوا بعيدي النظر في تفكيرهم ، حتى يقيموا نظما جديدة بدل النظم التي قوضها العقل بعد انطلاقه من عقاله · ولا بد في كل حضارة أن يحين الوقت الذي يتحتم فيه بحث الأساليب المتيقة من جديد اذا أريد أن تكيف الحضارة نفسها لكي تواكب التغيرات الاقتصادية التي لا يمكن مقاومتها ·

ولقد كان السوفسطائيون أداة هذا العمل الجديد ، ولكنهم مع الأسف عجزوا عن أن يضعوا السياسة المؤدية الى هذا التكيف · وكفاهم فخرا أنهم كانوا حافزا قويا لطلب المعرفة ، وأنهم جعلوا التفكير سنة العصر ، وأنهم جاؤوا من كافة أركان العالم اليوناني الى أثينا بأفكار وآراء وعلوم جديدة ، وأسباب دافعة وداعمة للتأمل الجديد ، وأيقظوا فيها الوعي والادراك الفلسفي النابع من

التفتح الذهني ، ولولاهم لما وجد سقراط أو افلاطون أو ارسطو » .

هيرقليطس وحكمة التغير :

لقد كان للفلسفة الفيثاغورية والمذهب الأيلي تأثيرا فعالا على فلسفة التغير التي نادى بها الحكيم هيرقليطس . الذي عاش في نفس الوقت الذي كانت فيه المدرسة الفيثاغورية تشيد مداميكها العرفانية، وقد يكون هيرقليطس قد شارك فيثاغورس في وضع بعض تعاليمه ، وخاصة تلك التي وضعها في مدينة كروتونا بايطاليا حيث أسس نظام الاخوة .

الاختلاف كبير حول ولادة هيرقليطس ووفاته بين مؤرخي الفلسفة اليونانية بصورة عامة ، فالبعض يذهب الى أنه ازدهر وتوفي بين (٥٣٦ ـ ٤٧٠ق.م) وقد وضعوه جنبا الى جنب مع فيثاغورس نظرا لوحدة موقفيهما ، على الرغم من اختلاف النتائج والغايات بين الوحدة الرياضية ووحدة تنازع الأضداد . والبعض الآخر يحدد ولادته ووفاته بين (٥٤٠ ـ ٤٧٥ق.م) .

ويلاحظ من أقوال مؤرخي الفلسفة ان

هيرقليطس هو حكيم من أفسوس أشهر المدن الأيونية الاثنتي عشرة ، ولد من أسرة كانت تتوارث الكهانة العظمى أبا عن جد حتى وصلت اليه مقاليد ذلك المنصب الرفيع ، ثم تنازل عنه لأخيه ، ليتخلص من قيود الدين الشعبي وعلاقاته الاجتماعية ، وينطلق حرا ليعبر عن أفكاره وتعاليمه الفلسفية ، وليبتعد عن محيط أكثر أهله لا يعرفون كيف يسمعون ولا كيف يتكلمون (١) ٠

ورغم زهد هيرقليطس وانصرافه للتفكير ، فقد ظل أرستقراطيا يفتخر بنفسه ، ويباعد بينه وبين الناس ، يحتقر العامة ومعتقداتها الدينية ، وعباداتها السخيفة ، ومعارفها التقليدية ، ويتهم هوميروس وهزيود بأنها العلة الأولى التي نشرت الأساطير والخرافات بين أبناء الشعب : ويستخرج من حكمها السياسي الشواهد على جهلها وعبثها ، فشبهها تارة بالأطفال ، وأخرى بالكلاب ، وثالثة بالحمير ٠ بل ان تعجرفه تعدى أبناء الشعب الى الفلاسفة والحكماء ، فكان يحتقر العلم الجزئي الذي حسب رأيه لا يثقف العقل ، ويعتب على

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٧ .

فيثاغورس وأكسانوفان اشتغالهما به ، فلم يحسب ولم يرسم ، ولم يجر التجارب ، ولكنه كان يعتبر العلم الجدير بالتفكير العميق هو المعاني الكليـــة ، فيخلع عليها أسلوبا مبهما عابق بالرموز والارشادات حتى عُـرف بالحكيم الغامض ، وقد أشار هو نفسه الى ذلك فقال : « انه لا يفصح عن الفكر ولا يخفيه ، ولكنه يرمز اليه ويشير » • ويرى يوسف كرم ان الشذرات المائة والثلاثين التي بقيت لنا من كتابه لتدل على ذلك دلالة كافية (١) • غير ان العلـم الجزئي تركه جاهلا بالطبيعة جهلا فاضحا ، وهبط به الى صف العامة ، فقد اعتقد مثلا أن غـروب الشمس انطفاؤها في الماء ، وانها تتجدد كل يوم ، وان قطرها قدم واحدة كمـا يبدو للبصر ، وغير ذلك من الأوهام • أما فلسفته فعميقة قوية ، وهي

---

(١) يقول الدكتور جعفر ال ياسين حاشية كتابه فلاسفـة يونانيون ص ٥٢ ما يلي : « نشر شلير ماخر عام ١٨١٧ م الشذرات نشـرة فيلوجية تحقيقية بقيت لفترة من الزمن يعتمد عليها كل الاعتماد . وهناك نشرة ممتازة قـام بها هرمان ديلز للنص اليوناني بشكل عام . ثم اعقب ذلك ترجمات لشذرات ذاتها نهض بها بـاي ووتـر وبيجروكسور نفوردوبرانت وفريمان . وهناك ترجمـة باللغة الانكليزية نشرتها مكتبة لويب الكلاسيكية سنة ١٩٣١ مع ملحـق لماكتبه ديوجينس عـن هرقليطس وحياته . » .

التي خلدت اسمه ، وكان لها أثر بعيد جسده كتابه المعروف « حول الكون » الـذي قسمه الى ثلاثـة أقسام : أولهـا الكون · وثانيهـا في السياسـة والأخلاق · وثالثها في اللاهوت ·

ويقال ان هيرقليطس كان يبدو دائما وأبـدا حزينا وعنيـدا ، وكارهـا للبشرية كما يتهمـه ديوجنيس ويقول ان صفاته أدت به الى أن يعيش منعزلا عن الناس في الجبال يأكل الأعشاب والجذور ، وهو الذي أعلن بصراحة « ان رجلا واحدا يساوي عندي عشرة آلاف رجل اذا كان من الطبقة الأولى » وهذا دليل واضح على عـدم حبه لعامـة الناس وعزوفه عن مخالطة أبناء شعبه ·

ولما كان هيرقليطس من أحذق فلاسفة اليونان وأكثرهم تناقضا ومللا ، فان أية محاولة لارجاع تفكيره الفلسفي الى قضايا قليلة واضحة ستؤدي الى التحريف والمسخ ، لأن تفسيرات معانيه ورمـوزه واشاراته يجب أن تكون اجتهادية نوعا ما تترك للتحديدات والصياغات التي يرغب الباحث في حل أسرارها كلما تأمل وفكر في بعض أقواله المبهمة ·

وفلسفة هيرقليطس تنطلق من التغير الدائم في

الأشياء : « أنت لا تنزل النهر الواحد مرتين لأن مياها جديدة تجري من حولك أبدا » ويقول فلوطرخس وهو يتحدث عن هرقليطس : « وأما يراقليطس فذكر أن مبدأ الاشياء كلها من نار وانتهاءها الى نار ، واذا انطفأ النار تشكل بها العالم : وأول ذلك أن الغليظ منه اذا تكاثف واجتمع بعضه الى بعض صار أرضا ، واذا تحللت الأرض وتفرقت أجزاؤها بالنار صار منها الماء طبعا ، وأيضا فان العالم وكل الاجسام التي فيه تحللها تنيرها النار اذ هي المبدأ ، لأن منها يكون الكل واليها ينحل ويفسد » .

ويلاحظ ان هرقليطس يرى أن النار هي المبدأ الأول الذي تصدر عنه الاشياء وترجع اليه . ولولا التغير لم يكن شيء ، لأن الاستقرار حسب رأيه موت وعدم . والتغير ليس سوى نزاع بين الأضداد ليحل بعضها محل بعض ، ولولا المرض لما طلبنا الصحة ، ولولا العمل لما نعمنا بالراحة ، ولولا الخطر لما كانت الشجاعة ، ولولا الشر لما كان الخير . أليست النار تحيا موت الهواء ، وموت النبات ، والانسان يحيا موت الاثنين ؟ » .

وهذا يعني ان الوجود ليس سوى موت يتلاشى ، والموت وجود يزول ، كذلك الخير شر يتلاشـــى ، والشر خير يزول • فالخير والشر ، والكون والفساد، أمور تتلازم وتنسجم في النظام العام ، بحيث يمتنع تحديد خصائص ثابتة للأشياء : « ماء البحر أنقى وأكدر ماء ، يشربه السمك ولا يستسيغه الانسان هو نافع للأول ، ضار بالثاني • ونحن ننزل النهر ولا ننزل (من حيث أن مياهه تتجدد بلا انقطاع) ونحن موجودون وغير موجودين (من حيث ان الفناء يدب فينا في كل لحظة) فكل شيء هو كذا وليس كذا ، موجود وغير موجود •

يقول هرقليطس : « ان الاشياء تجد راحتها في التغير » • ففكر التغير قديمة قدم الفلسفة والحكمة، لذلك لا نستغرب أن تنطلق فلسفة هرقليطس من التغير « كل شيء يسيل ، ولا شيء يبقى • كل شيء يترك مكانه ، ولا شيء يبقى ثابتا » • « ان الاشياء الباردة تصير دافئة ، والدافئة تصير باردة ، وأن الشيء الرطب يجف ، والجاف يرطب » • وليس التغير عند هرقليطس سوى كلمة نسبية ، وان ما ندعوه سكونا هو تغير بطيء أو تغير مستور ، وان كل مركب انما يتحلل تدريجيا اذا أمعنـــا النظر

فيه • كل شيء يأتي ويذهب ويحدث هذا بنسب مختلفة • وليس معنى قول هرقليطس « ان كل شيء يسيل ، ولا شيء يبقى » أن كل شيء يتغير فجأة أو ان كل الاشياء تفنى مرة واحدة ، انما يحدث هذا بنسب مختلفة في شكلها الظاهري كما يقول رايت • وليس معنى أن شيئا يبقى أكثر من شيء ، أن هناك ثباتا ، بل كل شيء يأتي الى نهاية ، ان أكثر الاشياء سكونا فيه تغير خفي •

وأوضح مثال للتغير عند هرقليطس سيلان النهر تظن أنك ينزل النهر الواحد والمياه الواحدة مرتين ولكن هذا خطأ • فالنهر دائما في سيلان ، والماء لا يبقى على حال • هذا من ناحية ومن ناحية أخرى النار التي هي حسب مفهوم هرقليطس أكثر الاشياء تغيرا بين الاشياء الطبيعية • ولم يصل هرقليطس الى هذه المعرفة عن تجربة علمية بحتة ، بل هو ينظر الى المشكلة نظرة فلسفية • كما أنه لم ينظر الى التغير نظرة كمية ، كما نلاحظه نحن الآن ، بل بنظرة كيفية • والتغير عند هرقليطس ليس من حالة الى حالة ، فهو يعلم حق العلم معنى هذا النوع من التغير ، يعرف أن الشمس ساعة الغروب تنتقل من اللون الأزرق الى اللون الوردي ــ وليس الازرق

والاحمر الوردي متضادان ، ولكنه لم يهتم لهذا ، فذهب الى أن التغير هو تغير ضد الى ضده • التغير من الرطب الى الجاف ، ومن الجاف الى الرطب •

وقد يدور في خلدنا أن نتساءل ماذا يعني هرقليطس بقوله : « ان الرطب يصبح جافا ، والبارد يصبح دافئا ، هل يعني ان الرطب يكتسب ، بالضرورة صفة الجفاف ، والبارد يكتسب صفة الدفء ؟ انه برأينا لم ينتبه الى وجود الشيء الثالث الذي هو محل الكيفات ، الذي يكتسب البرودة والدفء ، والرطوبة والجفاف • انه لم ينتبه الى المادة التي قال بها أرسطو على سبيل المثال : ان الشيء الوحيد الذي سيطر على هرقليطس ، ان كل شيء يتغير الى ضده ، حتى الآلهة وأنصاف الآلهة يتغيرون الى شيء ما ، أو بمعنى أدق ان اسما الهيا يحتوي عملية تنظيم ، كما يحتوي عملية تدمير » والحرب وزيوس شيء واحد • ان الصراع أو التغير هو الشرط النهائي لكل شيء ، والصراع أو الحرب هو الله والشيء الأسمى هو الحرب أو التوتر ، والسلام والسكون هما تنازع في حركة بطيئة •

ولا شيء يأتي عن نظام ، ان الوجود آتي فقط

عن طريق الصدفة ، القوة الملكية الالهية هي قوة الغلام ، بيده وجودنا ، انها لعبة فحسب • لقد أتى الوجود اعتباطا • ولكن هناك نصوص أخرى تقول : « ان الاشياء حدثت كما قدر لها أن تكون • فلا أدري كيف نوفق بين هذا أو بينها وبين القول : ان القوة الملكية الالهية في يد طفل • ان هذا النص يتضمن أن هناك ضرورة - ان التوفيق بين الاثنين في غاية الصعوبة ، ولكن انه ممكن • ان الكون ليس في يد آلهة أو أناس ، انه حدث صدفة خارج ارادة الآلهة أو البشر ، ولا يتدخل فيه لا هذا ولا ذاك ، وهو لعبة ، لقوة خفية ، سواء أوجدتها اعتباطا أو لم توجدها ، فانها توجد ، كما قدر لها • ولكن المشكلة لم تحل •

هرقليطس وعمليات الطبيعة :

اذا كانت فلسفة هرقليطس تنطلق في جوهرها من التغير والسيلان،فهل ينكر هذا الحكيم الانعزالي المتشامخ الوحدة ويرفضها رفضا تاما ؟ يبدو ان هرقليطس لم يذهب الى ما ذهب اليه الفلاسفة الطبيعيون الذين ردوا الموجودات الى أصل واحد وجعلوها مادة للتغير ، ولكنه برأينا لم ينكر وحدة

العالم وان كانت هذه الوحدة قد صيغت من اتحاد الأضداد ، فكل الاشياء صادرة عن الواحد ، ولكن حقيقة وجود الكثرة أدنى من وجود الواحد ذلك لأن الطبيعة تحب أن تختفي ، وكل الاشياء صور للنار ، وفي الاشارة الى النار ــ وحدة المتغيرات ــ لذا نرى هيرقليطس يقول : « هذا العالم الذي هو واحد بالنسبة للجميع ، لم يخلقه الـه أو انسان ، ولكنه كان منذ الأزل ، وهو الآن كائن ، وسيكون أبدا نارا خالدة تشتعل بحساب وتخبو بحساب » ٠

والظاهر أن افلاطون قد تنبه الى أن هيرقليطس يريد من أقواله هذه الوحدة بعد أن جمل جوهـر فلسفته « السيلان العام » و « التغير المتصل » لذا نراه يقول في محاورة السوفسطائي : « ولكن هناك فيلسوف أيوني في عصر متأخر وفيلسوف صقلي وحدا بين الكثرة والوحدة وأن الحقيقـة تشملهما معا ٠٠٠ » والمقصود بهذا القول هرقليطس كما أن المقصود بالفيلسوف الصقلي أنبادوقليس ٠

وقد يدور في مخيلتنـا السؤال التالي : هـل يقصد هيرقليطس بالنار معنى حسيا طبيعيا ؟ أم مجازيا رمزيا ؟ من ناحية الذين تعرضوا لهـذه

المشكلة لم تكن الآراء متفقة ، أما أرسطو فقد أشار في كتابه « السماء » الى هرقليطس كواحد من الفلاسفة الطبيعيين الذين يردون الموجودات الى أصل واحد • الماء أو الهواء أو النار ، وان كان لم يذكره بالاسم الا أنه المقصود بالنار • ثم يذكر أيضا في كتابه « ما بعد الطبيعة » رأي هيرقليطس بعد انكسيمانس ليقابل بين النار والهواء • ويذهب شراح أرسطو الى أن هذا الرأ هو عن هيرقليطس ، فالنار أصل أول وعلة مادية للموجودات ، استنادا الى بعض آراء هرقليطس التي اعتمدوا عليها ، والتي تقول : تحيى النار بموت التراب ، والهواء بموت النار ، والماء بموت الهواء ، والتراب بموت الماء • هناك تبادل بين الاشياء والنار وبين النار والاشياء كما أن هناك استبدال السلع بالذهب والذهب بالسلع • الصور التي تتحول اليها النار ، أولا البحر ثم نصف البحر أرض ونصفه الآخر أعاصير ، أو وميض البرق •

ويعتقد تشمولر ان ما ذهب اليه أرسطو وشراحه يقصد به هيرقليطس لأنه واحدا من الطبيعيين الأولين ، قال بالنار مفضلا اياها على ماء طاليس وهواء انكسيمانس لأنها أنقى وأطهر ، ولأن مقامها

المعتاد يصعد الى السماء العليا حيث لا رطوبة ، وحيث الشمس بضوئها المتوهج (١) ٠

ولكن بعض الفلاسفة المحدثين عارضوا هذا الرأي وفهموا نار هيرقليطس فهما مجازيا رمزيا ، فللنار من الخصائص ما يمنحها صفة الرمزية كالضوء والبرق والدفء والمقدرة الهائلة على احداث التغير في الاشياء ، ثم قدرتها الفائقة على الاندلاع والانتشار ، ولعل صفتها الأنطولوجية الأولى صلتها بالتغير المستمر ٠

وفي الحقيقة ان هناك نصوص لا تفيد المعنى الحسي الملموس للنار : توجه الصاعقة (النار) كل شيء ٠ انها تفرق وتجمع ، تتقدم وتتراجع ٠ ليست النار اذن مجرد شيء محسوس ملموس ، لأن هيرقليطس قد أضفى عليها خصائص عقلية مجردة ، فهي برأيه مسؤولة عن تدبير العالم ، والروح الانسانية ليست الا نارا كلما كانت أكثر جفافا كانت أفضل وأحكم ٠

ولم يفصل هيرقليطس بين الانسان وبين العالم ،

---

(١) P. Wheel Wrigh; Herachitus. p. 49.

بل الانسان حسب رأيه ، عالم صغير ، لذلك لا يكون فاصلا بين العمليات النفسية ، كالذكاء وبين العمليات الكيمائية الناتجة من فعل النار ، بل ان هيرقليطس يخلع على النار صفات الكائن الحي بقوله : أطوار النار النهم والشبع ، فليس في العالم من موجودات الا وقودا يحترق أو دخانا ينطلق ، والعالم كله كمجرى ماء يتدفق .

ويتم التغير باعتقاد هيرقليطس عن طريق فعل النار : الاشتعال والانطفاء ، فالنار الكونية تشتعل وتخبو وفقا لمقاييس منتظمة وليست النار مادة التحول فحسب ، ولكنها توجه التحول وتدير العالم . وعملية الاشتعال والانطفاء تتمان في وقت واحد عن طريقين أحدهما نازل والآخر صاعد ، أما الطريق النازل فبعض النار يتحول الى ماء ، ومن الماء نصف يصبح ترابا ، والنصف الآخر زوبعة بركانية أو وميض البرق ، وأما الطريق الصاعد فحيث يذوب التراب فيصبح ماء ثم يصبح الماء ترابا .

أما في الطريق الصاعد الى النار فيتكلم هيرقليطس عن ذوبان التراب الى ماء عند تبخر الماء

من تحولها الى نار ، ولم يشر هيرقليطس صراحة الى الهواء كمرحلة من مراحل التحول ، ولكنه مع ذلك في بعض النصوص يشير اليه فيقول : « في موت النار ميلاد الهواء ، وبموت الهواء ميلاد الماء » ٠ ولا يفسر هيرقليطس كل شيء بفعل تحول طبيعي كيمائي ، انما يذكر عن الحيوانات أنها تسلك وفقا لدافع داخلي فيقول : « يساق الحيوان الى المرعى بالضرب » وهذا لا يعني الضرب بالسوط وانما تولد الحيوانات وتكبر وتموت اطاعة وتنفيذا لارادة قوة مدبرة ـ دون أن يذكر الها مشخصا ـ هذا الدافع الحيواني وسط بين النشاط الناري الذي تخضع له الكائنات في العالم الطبيعي وبين اتقاد العقل الواعي لدى الانسان حين يستمع الى اللوغوس ، ذلك هو تعليق أحد أتباع أرسطو على النص ٠

ولكن برتراندرسل لا يرى في النص الا مظهرا من مظاهر تعجرف وتعالي هيرقليطس على الناس واحتقاره لهم كونه يذكر في نص آخر : الحمير تفضل التبن على الذهب (١) ٠ وهذا هو الواقع

---

(١) Russell. History of Western Philosophy p. 60

برأينا لأنه قد أصاب كبد الحقيقة ، فالحمير يأكلون التبن ويسدون به جوعهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يأكلوا الذهب ولا يستفيدوا منه من الناحية الغذائية ٠

واذا ما تساءلنا اذا كان لعمليات الطبيعة عند هيرقليطس نهاية عند حد الاحتراق العام للعالم سواء أكان هذا الاحتراق نتيجة عودة جميع الموجودات الى أصلها الأول من النار أم أنه احتراق عام لكل الكائنات تنتهي اليه الى هذا الرأي ذهب أرسطو وشراحه الذين ذكروا عن هيرقليطس قوله بنهاية العالم في كارثة مدمرة واحتراق عام ليبعث من جديد عالم آخر في سلسلة لا تنتهي من الدمار الشامل والبعث الجديد ، ولكن يظهر أن هذه فكرة متطورة قال بها بعض أتباع هيرقليطس ونقلها عنهم أرسطو ثم أيدها الرواقيون الذين كانوا يلائمون بين أقوال سابقيهم وبين نظرياتهم لا سيما هيرقليطس الذي يتفقون معه في كثير من الآراء ٠ أما المحدثون فلا يميلون الى ترجيح هذا الرأي عن هيرقليطس لا سيما أن النصوص التي تشير الى أن كمية الوقود التي تشتعل بها النار تتساوى مع الدخان المتصاعد منها ثم اشارته الى أن العمليتين

من النار الى التراب وبالعكس واللتين تتمان معا بحساب دون أن تطغى احداهما على الأخرى كل ذلك أدى الى استبعاد نسبة نظرية الاحتراق العام أو السنة الكبرى الى هيرقليطس ·

الروح عند هيرقليطس :

ولما كانت فلسفة هيرقليطس هي محاولة لتفسير الوجود والكون ، فليس رأيه وتفكيره عن الروح الانسانية سوى مدماك أساسي من فلسفته في التغير المتصل والسيلان الدائم ، باعتباره جرم صغير انطوى فيه العالم الاكبر ، يتركب من نار وماء وتراب ، والنار هي حياة الانسان ، اذ حين تغادر النار (الروح) الجسد فان التراب والماء لا يساويان شيئا · والروح عند هيرقليطس عاجزة عن اكتشاف كنهها وماهيتها أي الطرق سلكت لها ، وفي ذلك عمق مغزاها (١) ·

ويرى هيرقليطس ان الروح من أصل رطب وأنها تبخر من شيء رطب ، وهي ان شابهت الموجودات بتغيرها الدائم في طريقين صاعد ونازل

---

(١) Burnet. Early Greek Philophilos Ophy p. 151 —

فان لها خصائصها الذاتية باعتبارها أقل الاشياء جسمانية ، وحركتها ذاتية تلقائية وليست بفعل قوة خارجية لها مبدأها الخاص في النمو تماما كما تنتشر النار من مستصغر الشرر ، ولها خاصية الوجود مع ادراكها لوجودها (١) ٠

ويعتقد هيرقليطس أن الروح تشارك سائر الموجودات في حركتها الذاتية ، فالروح الساكنة كشراب الشعير المقدس اذا لم يحرك تميل مواده الى الانفصال ، كذلك الروح الساكنة لا بد أن تنحل ، وللروح كذلك طريقان في الحركة أحدهما صاعد والآخر هابط ـ اذ كل الاشياء تتغير ـ الانساني منها والالهي ، صاعد هابط بالتبادل ، فالنار تصبح ماء ثم الماء تراب ، ولكن لما كانت العملية الأخرى الصاعد تتم في نفس الوقت تبدو الروح ـ كسائر الأشياء ـ دون تغير ٠

ورغم ان العمليتين الصاعدة والنازلة تتمان بانتظام فان الانسان عرضة للتذبذب بين النار والماء ، كل يطلب السيطرة والغلبة ، وليست هناك روح يتم التوازن فيها بين الماء والنار الى ما لا نهاية،

---

(١) Wheel Wright - Heraclitus —

وفي غلبة أحدهما يكمن الموت ، فموت الأرواح أن تصبح نارا أو ماء ، غير أن الحياة والموت سواء ، من حيث أنه ان تغلبت الرطوبة على الجسم وغاصت الأرواح الى الماء ثم التراب خرج من التراب ماء وتتولد من الماء روح جديدة ، ففي موت انسان ميلاد انسان جديد ، وهكذا يتبادل الأحياء والأموات مراكزهم ، وذلك ينطبق على الأرواح التي كان الموت نتيجة غلبة النار ،ويعتقد هيرقليطس ان الدورة التي تحفظ التوازن بين الحياة والموت بثلاثين عاما أصغر فترة لكي يصبح الانسان جدا ٠

وأثناء حياة الانسان تظل النار والماء في تذبذب، النوم وليد الرطوبة منماء الجسم حيث تخفت النار، وبذلك تفقد اتصالها بنار العالم ، وتنسحب الى عالمها الخاص ، ويقف الوعي والادراك ، ثم يعود التوازن بزيادة النار الواعية حين اليقظة ، وهكذا النوم واليقظة ، والموت والحياة ، كالشتاء والصيف كل منهما يعقب الآخر وينتجه وفقا لمبدأ توتر المتضادات والنزاع بينها ٠

ويرى هيرقليطس ان طريق الروح عندما يكون الى أعلى٠ الى النار حيث الرطوبة ، فالروح الجافة

أحكم وأفضل ، أما اذا انحطت وهبطت فذلك حين تترطب ، وان كانت النفوس تلتذ في أن تصبح رطبة ؛ فالسكير يقوده غلام صغير أمرد يتبعه متعثرا لا يدري الى أين يذهب لأن روحه رطبة · وبذلك يربط هيرقليطس بين حالة الوعي وحياة العقل وبين توقد جذوة النار في الانسان ، غير أنه قد أثار بذلك مشكلة أخلاقية خطيرة اذ كيف يمكن التقييم الاخلاقي لنزعة الروح الى أعلى بينما اتجاهها وميلها وفقا لقانون لا اختيار لها فيه ؟

هذا هو التناقض بعينه في فلسفة هيرقليطس ، بل لعله أشد جوانب فلسفته تناقضا ، وان كانت غير متعذرة الحل في ضوء فلسفته ، فهي فلسفة تنظر الى المشكلات نظرة كونية فالأحداث الفردية التي يحكم عليها أخلاقيا أيا كان تقييمها ليس لها الا قيمة مؤقتة ، ولا أهمية في النظرة العامة الى الوجود بوجه عام حينئذ تستوي الصحة والمرض · وجميع الاشياء جميلة وحق وعدل بالنسبة للاله ، ولكن الناس يحكمون على بعضها بالظلم وبعضها الآخر بالعدل ·

الدين عند هيرقليطس :

ومن الطبيعي بعد أن تحدث هيرقليطس عن

الروح ومادتها التي تبخرت منها ونشأت عنهـا ، يُتطلع الى مدى صلتها باللوغوس المقدس ، حيث تكون الروح واعية بمقدار مشاركتها في اللوغوس أو الكلمة المقدسة تماما كقضيب للكهرمان يزداد احمرارا كلما اقترب من النار ، واللوغوس مبدأ الحركة المتصلة والتغير المستمر ، هو معيار الحقيقة، فليس سمو الروح في عزلتها عن العالم بل في اتصالها الوثيق به والنار الخالدة فيه • وغني عن البيان ان رأي هيرقليطس واعتقاده بالكلمة المقدسة بعيد كل البعد عن المفهوم المسيحي لهذه الكلمة •

ويعتقد أغلب من كتبوا عن حياة هيرقليطس أنه ينكر خلود الروح ، ويقول بالتغير المستمر والسيلان الدائم ، واذا ما تحدث عن الآلهة باعتبارهم قانون يقول : « كل خالد فان وكل خالد في موت ، أحدهما حياة الآخر ، وفي حياة أحدهما موت الآخر ، والخالد صفة للاله بالقدر الذي يوصف الانسان بالفناء » هذا فضلا عن أحاديث هيرقليطس عن آلهة اليونان كحديثه عن الشعائر والطقوس الدينية صدى لاستعلائه على الناس وتجريده الآلهة من كل قداسة •

يقول هيرقليطس عن الطقوس الدينية : « حينما

يذنبون يطهرون أنفسهم بالدم تماما كما يغتسل الذي تعثر في الطين بالطين ولو شاهده أحد رفاقه يفعل ذلك لاعتبره مجنونا » • وقال أيضا : « الهائمون بالليل ، السحرة ، الذين يعربدون والذين يمرحون والمشاركون في الأسرار ، كل الأسرار هي طقوس غير مقدسة » •

ويضيف الى كل هذا ساخرا : « مواكبهم وتراتيلهم استعراضات شائنة لولا أنها لتكريم الاله ديونسيس ، ولكن الذي يكرموه ويعقدون له الأعياد الكبرى يستوي مع «هادس» الجحيم » •

ولكن سخرية هيرقليطس من آلهة اليونان ومن طقوس مواطنيه الدينية ليست عن اتجاه عقلي علمي كما نفهمه في هذه الأيام (١) • وقد يكون متأثر بأكسانوفان الذي كان ينكر على الناس أن يصوروا آلهتهم بصورتهم ، فالأحباش يصورونه أفطس الأنف ، وأهل تراقية يجعلونه أزرق العينين، أحمر الشعر • ولو نطقت الثيران لصورت آلهتها على شاكلتها !

(١) Russil History of Western Philosophy. p. 65

ونلمس في نصوص وأفكار هيرقليطس أنه يجرد تصورنا للإلـه عن خيالاتنا وأخلاق مجتمعاتنا فلا نخلع عليه أية صفات بشريـة ، لـماذا يكون رب الناس ، ولا يكون رب الثعابين والهوام (١) ؟ ان هذا الاعتقاد يفسر الألفاظ التي قد تثير الاستغراب والتي يستخدمها هيرقليطس في حديثه عـن القوة الكونية . « الله هو الليل والنهار والشتاء والصيف والحرب والسلم والشبع والجوع ، يتخذ أشكـالا مختلفة كالنار التي امتزجت بالبخور يسميها كـل شخص حسب ما يفوح منها » .

ولم يقف هيرقليطس في فلسفته الدينية عنـد هذا الحد بل نراه يشير الى الوحدة الكامنـة وراء الكثرة ، تلك الوحدة الكونية وسر الاتساق على أنها الحكمة التي تسيطر على العالم ككل وامكانياتها مظاهر لا حصر لها من المتغيرات .

هيرقليطس ومعاملات الناس :

لم تكن تأملات وآراء هيرقليطس مقتصرة على الدولة والدين والطقوس والسياسة ، ولكنها كانت

---

(١) Wheelmright. Herachitus p. 72.

مرتبطة ارتباطا كليا بالعلاقات والمعاملات الاجتماعية بين الناس وقانون البلد الذي يعيشون فيه ، وبالأخلاق ، والحرب والسلام ، وذلك تجاوبا مع فلسفته الكونية المتعلقة بالسيلان الدائم وتنازع الأضداد ، فنراه مثلا يمجد الحرب ، ولكن ليس كتمجيد بعض الحكماء لها أمثال نيتشه ، ويمجد الآلهة والبشر أولئك الذين يموتون في الحرب ، ولكن من حيث حتميتها كضرورة وجود تنازع متصل بين الحرب والسلام بموجب مبدأ التغير المستمر ، ولعل الظروف التي عاشها لها أثر في صياغة أفكاره الخاصة بالحرب اذ كان يحرض مواطنيه على الصمود في وجه الفرس ، كما سخط على أولئك الذين تخلوا عن هرمودورس فنفي من آفيسوس « أولى بهم أن يشنقوا أنفسهم كل رجل منهم ، وأن يدعو مدينتهم ليملكها الغلمان ، لقد كان أفضلهم ، وقد أعلنوا لن ندع فينا من يتنوق على الآخرين ، فان وجد فليخرج ويعيش في مكان آخر » ولعله لم يكن على شاكلتهم لأن الكلاب تنبح الأغراب ·

وربما يكون هيرقليطس قد اعتزل الناس بعد أن نقم على أهل بلده ، ومع ذلك لم يبتعد عن

الحياة في العالم وتقديم النصح للناس ، فالانغماس في الشهوات وتأكيد الذات كل ذلك معارض عنده لنظام الكون • القضاء على التأكيد الصارخ للذات أحوج من اطفاء النار ، ان تأكيد الذات سمة الأرواح السفلى التي تجهل وتعارض أنها حتما منتهية الى فناء الذات كحتمية وجود القوس للوتر والوتر للقوس ليخرج النغم ، فالنهاية الى فناء الذات لا يعني الهزيمة ، والأرواح العاقلة تدرك ذلك وتتحرك في ثقة وخفة الى النور راضية عن كل الظروف ، مدركة أنها ليست ضحية التغير ، ولكنها بذلك تشارك في ارادة الهية وتوطد علاقتها باللوغوس الناري •

ولا بد من طاعة القوانين الوضعية كذلك ، سواء قانون المدينة أو ما يتعارف عليه الناس ، ان هذه القوانين ما دامت صادرة عن وعي عقلي فهي مستمدة من مصدر الهي ، ويجب أن يحارب الناس من أجل قانون مدينتهم كما يدافعون عن أسوارها •

واذا كان القانون هو ما تعارف عليه الناس ، فان من القانون الاستماع الى مشورة فرد واحد ، لأن فردا واحدا أحيانا يكون أفضل من عشرة آلاف

اذا كان أفضلهم . وليس بين الفضلاء من هم أمثال هوميروس ، أجدر به أن ينفى من المدينة أي عقل لهم حين يصدقون حكايات الشعراء ، ويتبعون العامة كأساتذتهم جاهلين المبدأ المأثور : الكثرة أشرار والقلة أخيار .

النسبة والتناقض :

من الأمور المسلم بها أن التفكير المنطقي لا يجيز اجتماع المتضادات ، فمن الطبيعي أن كل حكيم يؤسس مذهبه الفلسفي وفق أسس صحيحة وصادقة كما يراها هو بالذات ، ويعد كل ما يخالفها منافيا للحقيقة ، وبعيدا عن الواقع ، ولكن هيرقليطس لا يتورع من الجمع بين المتقابلات تاركا للناس أن يجدوا فيها ما يرونه من تناقض أو توافق وذلك حسب نظرتهم العلمية الى طريقه الصاعد وطريقه النازل سواء تجمعها الذاتية لا التضاد ، والروح الانسانية حيث تصعد الى النار أو تهبط الى الماء فكل ذلك بموجب قوانين الكون ، ومع ذلك فهو يقيم سلوكها أخلاقيا كما لو كان صادرا عن اختيار محض .

والتضاد عند هيرقليطس هو الذي يظهر الحقيقة

لأنه يختفي في أعماقها ، لذلك يمكننا أن نعتبر هذا الرأي مخالفة صريحة لما يذهب اليه الايونيين والفيثاغوريين ، كونه لم يبحث عن أصل الاشياء وبدايتها ، كما أنه لم يحاول التطلع الى وحدة خارج الكثرة أو المتضادات ، ولكن الوحدة بمفهومه هي في الأضداد نفسها ، فهي كثيرة وواحدة في آن معا ، ان أصل الموجودات ليس مجرد مادة طبيعية محسوسة ، كما أنه ليس مجرد حقيقة ميتافيزيقية انه الاثنان معا ، فالنار الكونية تغذي اللهب ، وتخضع للتغير ، ولكنها توجه للتغير ٠

ومن هذه الأفكار نستنتج أن هيرقليطس لا يبحث عن الواقع على حساب الحقيقة ، ما دامت الحقيقة ذاتها مبهمة غامضة ذات مظاهر متناقضة ٠ ولكن كيف يمكن أن تكون الحقيقة واحدة والأحكام المتعارضة صادقة معا ؟ يظهر لأول وهلة أن لا مفر من الحكم على أفكاره بالسفسطة أو النسبية ٠ولكن السفسطة تعتمد عادة على الأساليب البيانية والتعابير المجازية ، والتلاعب بالألفاظ ، ولكن هيرقليطس عندما يستخدم للاستعارة أو المجاز تنطوي نصوصه على تناقض لفظي ، فان هذا لا يصنفه في سطحية السوفسطائيين وتهافتهم ٠

ومما لا شك فيه ان هيرقليطس ينهد الى اظهار التناقض الواقعي ، وليس التناقض اللفظي ، فحين يذكر أن الطريق الصاعد والطريق النازل سواء ، فليس ما يقوله عبثا ، وانما يعني أنهما يحدثان معا ، وأن ما بينهما من تضاد هو سر الوجود ، فكل تناقض في النصوص ليس من قبيل التناقض السطحي ، كالقول بأن علم النفس الحديث لا يبحث في النفس ، أو كالقول : ليس هناك أشد ارهاقا من الفراغ ، لأن مثل هذه العبارات يمكن تأويلها في بساطة وفهمها في يسر ، ما دام علم النفس الحديث لا يتناول البحث في ماهية النفس وجوهرها ، أو ما دام الفراغ يجلب السأم والملل ، وبالتالي ضيق النفس وارهاقها ·

ولكن هيرقليطس يهدف الى التناقض الحقيقي وخاصة حين يتحدث عن القوس : اسمه الحياة وفعله الموت ، لا ينهد الى مجرد الجناس في اللفظ ، من حيث أن اللفظ اليوناني يشير الى المعنيين : والقوس والحياة ، ولكنه يعني ان الحياة والموت وجهان لحقيقة واحدة ، يحدثان وفقا لمبدأ التنازع بين المتضادات لاستمرار الوجود (١) ·

---

(١) ديموقريطس : سامي النشار ص ٣٦٩ .

واذا كانت السفسطة أو التلاعب اللفظي ليس صفة للتناقض في نصوصه ، فان الحكم على آراء هيرقليطس النسبية يتطلب المزيد من الوقت ، لأن نصوص كثيرة تذكر ذلك :

- ماء البحر أنقى وأكدر ماء : يشربه السمك ، ولا يستحبه الانسان ، هو نافع للأول ، ضار بالثاني .
- تستحم الخنازير في الطين والدجاج في التراب .
- تفضل الحمير التبن على الذهب .
- أجمل قرد قبيح ، بالنسبة للانسان ، كذلك أحكم الناس يبدو قردا اذا قورن بالاله : في حكمته وفي جماله وفي كل شيء .
- الانسان طفل بالنسبة للاله ، كالطفل بالنسبة للانسان .
- الأطباء يبترون ويحرقون ويعذبون المرضى ، ثم يطالبون بأتعاب لا يستحقونها على مثل هذه الخدمات .

ان نظرية هيرقليطس التي ترى ان الطريق الصاعد مثلا ليس نسبيا بالنسبة للنازل ، ان في أعلاه للنار الخالدة ، واذا كانت الاحكام نسبية

عند الانسان والحيوان ، فهي ليست كذلك بالنسبة لله ، النسبية موجودة في تقييم للأحكام لأن طريقه يخلو من الحكمة بخلاف طريق الله . فالحكمة الخالدة لها حكم مطلق ، جمال أو حق أو خير ، ولكن الناس يعتبرون بعض الأحكام حقا وبعضها باطلا .

فاذا كانت الأحكام ونسبيتها لا تفسر آراء هيرقليطس ، فكذلك نسبية التصور أو الادراك نتيجة الفهم الخاطيء لمثل هذه النصوص .

- اذا لم توجد الرطوبة لم توجد الحرارة ، فالشيء لا يسخن الا اذا كان من قبل باردا وهكذا الرطوبة والجفاف .

- الأشياء الباردة تصبح دافئة والاشياء الدافئة تبرد ، وما هو مبلل يجف ، وما هو جاف يترطب .

- بالمرض تكون الصحة مجلبة السرور ، بالشر نسر للخير ، كذلك بالجوع يكون الشبع ، وبالشقاء تكون الراحة .

ولا يجسد لنا رأي هيرقليطس الذي يرى أن الأشياء تعرف بأضدادها فحسب ، ولكنه يقصد

التناقض الحقيقي عندما يوجد بين الصحة والمرض، والحياة والموت ، والراحة والتعب • فافتراض امتناع وجود أحدهما يعني امتناع وجود الآخر • لذلك لا بد من حدوث الاثنين معا كي يكون التوازن وفقا لمبدأ تنازع المتضادات ، لأن المتقابلين مظهران لشيء واحد مشترك بينهما • لأن (الحكمة طريق الله) ، ولذا فليس من الخير للناس أن تسير الأمور وفق ما يشتهون • انهم يشتهون الصحة والراحة والشبع ، ويكرهون المرض والتعب والجوع ، مع أن نهاية المرض والتعب والجوع يعني اختفاء الصحة والراحة والشبع ، لأن توقف النزاع في الحياة يعني خراب العالم ودمار الكون •

الانسجام الخفي :

درج مؤرخي الفلسفة على القول بأن التعارض القائم بين فلسفة وآراء بارمنيدس وهيرقليطس ، ينطلق من أن هيرقليطس ليس سوى حكيم التغير ، بينما بارمنيدس هو فيلسوف الوحدة ، اذن التغير مبدأ أول في حكمة هيرقليطس ، كما أن فلسفة بارمنيدس تدور حول الوحدة في الوجود ، ولكن في حنايا حكمة هيرقليطس مبدأ لا غنى عنه لتفسير

التغير ، انه مبدأ الوحدة ، فهو ينص على أن من الحكمة أن نعرف أن كل الاشياء واحدة ·

واذا ذهبنا الى أن هيرقليطس هو حكيم الكثرة دون الاشارة الى الوحدة نكون قد انحرفنا عن الواقع والحقيقة ، اذ كيف يمكن أن نرى في فلسفة هيرقليطس توتر المتضادات ، دون أن نلاحظ فيها التوازن والتوافق والانسجام ؟

ونحن ليس بمقدورنا أن ننكر بأن البعض قد جعل حكمة هيرقليطس ضمن المذاهب الثنائية ، وميز بين المتغيرات في العالم المحسوس وبين الوحدة الحقيقية للوغوس ، ووصف الأولى بأنها قشور ، بينما الثانية هي اللباب · علما بأن فلسفة هيرقليطس لا تؤكد بأنها واحدية أو ثنائية فضلا عن أن بعضهم يقرب حكمة هيرقليطس من فلسفة بارمنيدس · رغم ان لفلسفة هيرقليطس طابعها الخاص بها ، فالوحدة عنده لا تدرك الا في حنايا الكثرة ، كما أن الانسجام يتولد عن توتر المتضادات ، فليست الحكمة هي التي توجه كل الاشياء في جميع الاشياء ·

واذا كان هيرقليطس قد استخدم ألفاظا تعيد

معنى الهيا مشخصا مثل (الاله زيوس) فلأن هذه الألفاظ هي الوسيلة الوحيدة للتعبير ، ولكنه يستخدمها استخداما مخالفا تماما لما تعارف عليه الناس ، فهو لا يعني أن يشخص الوحدة الكامنة في الأشياء .

وربما استخدم هيرقليطس تشبيهات تتعلق بالموسيقى ، فالعدل في نزاع الأضداد كتوافق اللحن في تنافر الأنغام ، والتوتر لازم ليتم التوازن ، لزوم شد أوتار القيثارة واهتزازها ليصدر النغم . ولكن هذا لا يعني أن هيرقليطس متأثر بأفكار فيثاغورس والمدرسة الفيثاغورية التي تهتم بالموسيقى وتقول ان العالم عدد ونغم ، لأنه هو بالذات لا يريد من هذه التشبيهات الا تأكيد ضرورة وجود التوتر والتنازع ، ليتم التوازن والانسجام . ذلك الانسجام الخفي الكامن في واقع التنازع بين المتضادات والذي هو أفضل من كل انسجام ظاهر جلي ، وكما أن أجمل الألحان لا تصدر بدون القوس والقيثارة معا ، فكذلك لا بد من المتقابلين ، ومن التوتر بينهما ليتم الانسجام الخفي ، فالذاتية بين التنافر والانسجام احد جوانب حكمة هيرقليطس في تفسير الكون ، أيا كان في ذلك من تناقض ، لأن

كل مذهب يريد أن يضفي على النظام العام للكون وصفا محددا ، هو في نظر هيرقليطس يعبر عن وجهة نظر حزبية ، غير محايدة .

ومما لا شك فيه ان حكيم التغير هيرقليطس يستبعد في تفسير الكون والتغير الحاصل فيه كل تصور عقلي لهذا النظام تحت اسم الحكمة بمفهومها الشائع ، كما يستبعد كل تصور ديني كاطلاق اسم الله أو زيوس ، ثم لا يرضى عن تصور مادي طبيعي كالنار ، ان كل هذه التصورات تصدق ولا تصدق ، وان كان لا بد من اطلاق اسم على نظام يختفي في توتر المتضادات ونزاع المتعارضات فليكن : الانسجام الخفي .

يقول الفيلسوف فيليب ويلرايت : « وهناك أثر قديم يقول أن هيرقليطس كان تلميذا للفيلسوف الفيثاغوري هيبوزس فيلسوف ميثابونم ، ولكن هذا الأثر على أية حال لا يقوى على أن يقف دليلا ، لأن بعض الباحثين يعتبرون هيبوزس متأخرا عن هيرقليطس ، وعلاوة على ذلك فان ايامبليخس في كتابه ــ حياة فيثاغورس ــ ينكر فيثاغوريته . والحقيقتان الصحيحتان عن هيبوزس هما أنه كان

في وقت واحد عضوا في الأخوة الفيثاغورية ، وأنه كان يعتقد مثل هيرقليطس أن العالم في حالة من التغير المستمر ، وأنه يتكون من النار كعنصر أولي له ٠ ولكن سواء كانت عقيدته سابقة على هيرقليطس او أخذها عنه ـ وذلك أمر من المستحيل تقريره ـ فان هناك على أية حال انسجاما بسيطا وعاما يمكن بالطبع أن يكون متزامنا » ٠

ويحدثنا كذلك فيليب ويلرايت عن علاقة هيرقليطس ببارمنيدس الايلي فيقول : « ان مشكلة علاقة هيرقليطس ببارمنيدس الايلي تستلزم مرة ثانية سؤالا غير مؤكد عن التواريخ المقارنة ٠ فيفترض معظم الباحثين أن بارمنيدس كتب قصيدته الطويلة عن الحقيقة والظواهر بعدما نشر هيرقليطس كتابه عن الطبيعة ، ان سببين رئيسيين للتاريخ التقليدي يمكن أن يوضحا موضع الملاحظة ٠ الشاهد الأول محاورة أفلاطون ـ بارمنيدس ـ والتي يتمثل فيها سقراط شابا يتحدث الى بارمنيدس الشيخ ٠٠٠ وثانيا : هناك الفقرة التي يفترض عدد من الباحثين أنها تشير الى هيرقليطس والتي يحذر فيها بارمنيدس من مجموعة غير منظمة تعتقد أن الوجود واللاوجود هما نفس الشيء وليسا نفس الشيء مع ذلك ، وأن

طريقة الاشياء في كل مكان هي التقلب » · ويخلص من كل هذا الى القول : وعلى أية حال فاحتمال أن هيرقليطس قد كان رد فعل بارمنيدس بالطريقة التي وصفناها ينبغي أن يظل موضع نظر ·

الفيثاغورية والايلية :

المدرسة الفيثاغورية التي أطلقها الحكيم فيثاغورس باسم الأخوة والمحبة والعدل والمساواة ، كان لها تأثير كبير على نتاج الفكر اليوناني خلال قرون عديدة من الزمان ، كما أخذ عنها وتأثر بأفكارها الفلسفية عدد كبير من الفلاسفة والحكماء الذين تسنموا في وقت من الأوقات ريادة الحكمة والعرفان في بلاد اليونان ، ولم تكن هذه المدرسة العقلانية الوحيدة في اليونان ، بل كان هناك مدارس ومذاهب عديدة أخرى تتصارع وتتنازع بأفكارها العرفانية أحيانا والاسطورية الخرافية أحيانا أخرى ·

ومن هذه المذاهب المذهب الايلي الذي بلغ قمة تأثيره على بعض العقول الناهدة الى العلم والمعرفة، وبالفعل نبغ من أصحاب هذا المذهب فلاسفة وحكماء

لا تزال آثارهم الفكرية تلعب دورها الفعال في تاريخ الفلسفة العالمية .

ولما كانت الفيثاغورية والايلية قد عاشتا في وقت واحد أو بالأحرى في عصر واحد ، فقد أثرتا بصورة مباشرة أو غير مباشرة على عقول بعض حكماء ذلك العصر ، فأخذوا عنهما وتلقحوا بأفكارهما ، حتى جاءت فلسفاتهم منسجمة أو موافقة لمنطلقات تلك المدرستين العرفانيتين : الفيثاغورية والايلية .

ومن المعروف لدى مؤرخي الفلسفة ان معظم تعاليم فيثاغورس قد تكونت في ايطاليا في مدينة كروتونا الصغيرة حيث وضع اللبنة الأولى في بناء الأخوة الصحيحة الناهدة الى الحكمة والمعرفة ، والتصوف والرياضيات وعلم الكون والموسيقى .

أما المذهب الايلي فينطلق من تعاليم حكيمهم الأول بارمنيدس الذي وضع مذهب الوجود في صورته الأولى ، بالتعاون مع تلميذه النشيط زينون ،فذهبا الى أن هناك طريقتين يمكن تصورهما والتفكير فيهما أولهما أن الموجود موجود ، ومن المحال أن يكون غير موجود ، وهذا هو اليقين ، لأن

الحق يلازمه • والثاني هو أن الموجود غير موجود ويجب اذن أن لا يكون موجودا • وهذا طريق لا يمكن لأحد أن يتعلمه • لأنه لا يعلم ما هو غير موجود ، لأن ما نفكر فيه هو موجود وهو شيء واحد •

والوجود بمفهوم المذهب الايلي قديم ، لأنه يمتنع أن يحدث من اللاوجود لأن اللاوجود غير موجود ، ويمتنع أن يرجع حدوثه مرجح في وقت دون آخر • وهذا يعني انه اما أن يكون محدثا لنفسه ، واما أن يحدثه غيره ، أما أن يكون محدثا لنفسه فهذا خطأ ، لأنه اذا كان هذا حقا ، فلماذا أحدث نفسه في وقت دون غيره ؟ لا بد أن هناك دافعا جعله يفعل هذا في وقت دون وقت •

ولما جاء زينون طلع بحججه الاربعة التي كوّن منها مذهبا متناسقا ، فالحجتين الأولتين تقولان باستحالة الحركة بواسطة طبيعة المكان المفترض أنه متصل ، بدون أن يتوقف الزمان عن أن يكون مكونا بالطريقة عينها كالمكان •

وفي الحجتين الثانيتين تستخدم طبيعة الزمان لاثبات استحالة الحركة بدون أن يكف المكان عن أن

يكون مكونا هـو كذلك مـن نقط منقسمة ٠٠٠ وليست الحجة الثانية سوى صورة من الحجة الأولى والرابعة ، والزوج الاول من الحجج يهدف الى نقد فكرة تعرض أول الأمر للعقـل ، وهي انقسـام الامتداد غير المحدود ٠ والثانية تعارض التصور الذي لا يطرأ للفكر ولا يحققـه الا اذا اعتـرف بمشاكل الحجج الأولى ٠

وفي ضوء ما قدمناه من آراء يمكننا أن نذهب الى أن المذهب الايلي ليس سوى نتاج عقول عارفة ناهدة الى بلورة الحقيقة العرفانية الهادفة الى معرفة انسانية الانسان وتأكيد فعاليـة ذاته التواقة الى التسرمد والخلود ، بعد أن قضت فترة طويلة تسبح في تيارات من الخوف والقلق والشك ٠

أما المدرسة الفيثاغورية فكانت مصدر تصوف وصفاء روحي استمدته مـن تعـاليم فيثاغورس المنطلقة من الأعداد والمعادلات والهندسة ، والخير والآلهة وطبيعة الواحد ، والأخوة والمساواة بين جميع أبناء المجتمع الواحد مهما تعددت ألوانهـم وأشكالهم وصفاتهم الاجتماعية، بشرط أن يساهموا في الأخوة والزهد والتقشف ونكران الذات ٠

وبالرغم من وجود بعض التناقض والاختلاف بين الفيثاغورية والايلية فقد لعبت هاتان المدرستان دورا هاما طليعيا في مجال الحكمة والفلسفة العالمية، وأثرتا تأثيرا ظاهرا في عقول وأفكار العديدين من الحكماء والفلاسفة الذين جاؤوا بعد هاتين المدرستين بقرون عديدة ٠

الفيثاغورية والاسلام :

من الطبيعي جدا بعد أن وصلت الى العالم الاسلامي خلاصة الفكر اليوناني وما شع من هذا الفكر من علوم ومعارف ، أن يعرف الفلاسفة والمؤرخون الاسلاميون فيثاغورس وحكمته العرفانية الهادفة الى الزهد والتصوف والاخوة ، لذلك نلاحظ أن بعض فلاسفة الاسلام قد رسموا لنا صورة واضحة جلية عن فيثاغورس ، ومدرسته وجماعته ونظامها الأخوي ٠

ويبدو أن الفيثاغورية قد وصلت للاسلاميين من خلال مؤلفات ومصنفات أرسطو المتعلقة بالطبيعة وما بعد الطبيعة والآثار العلوية ٠ ولكن فلوطرخس يصور لنا في كتابه « الآراء الطبيعية » صورة واضحة

عن الفيثاغورية فيقول : « كان للفلسفة مبدأ آخر وهو من فوثاغورس بن منسارخس من أهل ساميا » أي ساموس ، وهو أول من سمي الفلسفة بهذا الاسم ، وكان يرى أن المباديء هي الأعداد والمعادلات ، وكان يسميها هندسات . وأن فرقة فيثاغورس سميت ايطاليقي ، لأن فوثاغورس كان مقيما بايطاليا ، اذ انتقل من سامس التي كانت موطنه .

ويذكر أن فيثاغورس كان يرى أن المباديء منها الواحدة ، وهي الاله والخير ، وأنها من طبيعة الواحد وهي العقل . وأن الثانية التي لا حد لها هي التي تسمى دوادا ـ وهي الشر ، وفيها الكثرة العنصرية والعالم المبصر . وكان يرى أيضا أن العنصر بأجمعه متغير مستحيل سيال متنقل . كما أن فيثاغورس يرى أن الشيء المحيط يسمى عالما .

أما قوله في النفس فهو يرى أنها عدد يحرك ذاته ، وأن الحي والناطق في النفس غير فاسد ، وأن النفس ليست الاله ، ولكنها فعل الاله السرمدي ، وأما جزؤها الذي ليس بناطق ، فانه فاسد . ثم أن الكتاب بعد ذلك ممتليء باخبار

فيثاغورس والفيثاغوريين • ويعدد آراء فيلالاوس ويورد آراءه في فناء العالم وانهما على طريقين : أحدهما من السماء بنار تسيل منه ، والآخر بماء قمري بانقلاب القمر وبانسكاب الماء ،وأن البخارات هي غذاء العالم • ثم أننا نعلم ان آراء الفيثاغورية وصلت صحيحة خلال محاورة فيدون ، وقد نقلت هذه المحاورة الى العالم الاسلامي أيضـــا ، غير أن الصورة المشوهة لفيثاغورس ما لبثت أن انتقلت الى الاسلاميين في صورة الفيثاغورية الجديدة •

ويحدثنا الشهرستاني عــن مذهب فيثاغورس فيقول : « انه يدعي أنه شاهد العوالم بحسه وحدسه الفلكي ، وبلغ في الرياضة الى أن سمــع حفيف الفلك ، ووصل الى مقام الملك ، ذكر أنه ما سمع قط ألذ من حركاتها ، ولا رأى شيئا قط أبهى من صورها وهيئاتها ، وأن الاشياء الملذة للنفس تأتيه حشدا ، وارسالها كالألحان الموسيقيــة الآتية الى حاسة السمع ، فلا تحتاج الى أن يتكلف لها طلبا ، هذه الألحان السماوية اذن هي التي قادته الى تسمع الحقيقة ، فما هي هذه الحقيقة عنده ؟

يقول الدكتور سامي النشار (١) : « هذا يضع الاسلاميون على لسانه المذهب الفيثاغوري الحديث، وهو مذهب خليط من الأفلاطونية والفيثاغورية ، مذهب يتبين الفكرة التي رددها أفلاطون عن الفيثاغورية « ان من يتبع الآلهة فهو سعيد ، ومن يتبع الأشياء الفانية فهو شقي » وعلى هذا المذهب شبه الصوفي ترتفع عددية تحاول أن تعين طبيعة الحقيقة العليا المتسامية ، بالأعداد وخواصها ، ويمثل هذه الفيثاغورية الحديثة مودراتس القادس الذي كتب يقول : ان نظرية الطبيعة التي عرضها أفلاطون في طيماوس هي نظرية فيثاغورية ، وأنهم ـ أي الفيثاغوريين ـ هم الذين نقلوها لأفلاطون »٠

من الأمور الواضحة التي لم تعد خافية على أحد أن تفسير الوجود بالأعداد ليست سوى رموز واشارات يقصد من خلفها الوصول الى هدف معين وتوضيح مفاهيم هذا الهدف العرفانية ، لذا نلاحظ أن فيثاغورس انما اعتمد على الأعداد لتوضيح بعض أهدافه ، فاعتبر العدد واحد علة الاجتماع ، والعدد اثنين علة الانفصال ، ففيثاغورس لم يعرف

(١) ديموقريطس ص ٤٤١ .

العدد كعلم قائم بذاته ، وانما اعتبره كوسيلة للوصول الى الحقيقة اللامحسوسة ، وقد أثرت أفكاره هذه في بعض آراء فلاسفة اليونان والمسلمين على السواء .

والخواص العددية الفيثاغورية المتعلقة بالنفس نراها مثبوتة في كتاب « اللاهوت الرياضي » وقد وصلت الى العالم الاسلامي، ثم اختلطت بالأفلاطونية الحديثة . ومن المؤكد أن الاسلاميين قد عرفوا الفيثاغورية المحدثة معرفة كاملة ، وعرفوا أيضا نيقوماخس الفيثاغوري وان كانوا اعتبروه (نيقوماخس أبو الفاضل أرسطاليس) وأخذ عنه علم العدد والنغم ، ولا يعرف بين حكماء اليونان الا بالفيثاغوري .

ويقدم لنا الشهرستاني المذهب الفيثاغوري الجديد مختلطا بالأفلاطونية المحدثة ، منسوبا الى فيثاغورس ، ويذكر أنه كان في زمن سليمان بن داود ، وأنه أخذ الحكمة من معدن النبوة ، وأنه كان يقول في الالهيات :

ان الله واحد كالآحاد ، فلا يدخل في العدد ولا يدرك من جهة العقل ، ولا من جهة النفس ، لا

يستطيع هذا ولا ذاك أن يصفه بصفة ، وانما هو فوق الصفات العقلية والروحانية ، ولا تدرك ذاته ، وانما تدركه بآثاره وصفه وأفعاله ... وكل عالم من العوالم يدركه بقدر ما فيه من آثار تظهر فيه ، فيصفه ، فالموجودات التي خصت بآثار روحانية تصفه وصفا روحانيا ، والموجودات التي خصت بآثار مادية تصفه وصفا ماديا .

والموجودات متفاوتة في وصفها له ، وأدركها لحقيقته . فقد جبل الحيوان على آثار خاصة به فينقيه تبعا لجبلته ، ونظر الانسان على آثار خاصة به فيصفه بفطرته . والناس أيضا متفاوتون في قدرهم فكل واحد منهم يصفه تبعا لقدرته ، ويقدسه تبعا لخصائص صفته .

ويذهب الشهرستاني الى أن فيثاغورس يقسم الوحدة الى قسمين : وحدة الله وهي وحدة الاحاطة بكل شيء ، وحدة الحكم على كل شيء ، وهي وحدة تصدر الآحاد في الموجودات والكثرة فيها . والى وحدة مستفادة من الغير وهي وحدة المخلوقات ، ويقسمها أيضا الى وحدة قبل الدهر ، ووحدة مع الدهر ، ووحدة بعد الدهر ، وحدة قبل الزمان ،

ووحدة مع الزمان • فالوحدة التي قبل الدهر هي وحدة الله • والوحدة التي مع الدهر ، هي وحدة العقل الاول • والوحدة التي بعد الدهر ، هي وحدة النفس • والوحدة التي قبل الزمان ، هي وحدة النفس • والوحدة التي مع الزمان ، هي وحــدة العناصر والمركبات ، ويقسمها أيضا الى وحــدة بالذات ووحدة بالعرض ، فالوحدة بالذات ليست الا الله مبدع للكل ، الذي تصدر منه الوحدانية في العدد المعدود • والوحدة بالعرض تنقسم الى ما هو مبدأ للعدد وليس داخلا فيه ، والى ما هو مبدأ العدد وهو داخل فيه ، والاول كالوحدة للعقل الفعــال ، لأنه لا يدخل في العدد المعدود • والثاني ينقسم الى ما يدخل فيه كالجزء له ـ فان الاثنين انما هــو مركب من واحدين ، وكذلك كل عدد فمركب من آحاد لا محالة ، وحينما ارتقى العدد الى أكثر ، نزلت نسبة الوحدة فيه الى أقل ـ والى ما يدخل فيه اللازم له لما لجزء فيه ، وذلك لأن كل عدد معدود لن يخلو قط من وحدة ملازمة ، فان الاثنين والثلاثة في كونهما اثنين وثلاثة وحدة ، وكذلك المعدودات من المركبات والبسائط وحدة •

أمــا في الجنس أو في النــوع أو في الشخص ،

كالجوهر في أنه جوهر على الاطلاق ، والانسان في أنه انسان ، والشخص المعين ـ مثل زيد ـ في أنه ذلك الشخص بعينه • فلم تنفك الوحدة عن الموجودات قط • وهذه وحدة مستفادة من وحدة الله لزمت الموجودات كلها ، وكل ما هو أبعد من الكثرة فهو أشرف وأكمل •

هذه الأفكار الافلاطونية المحدثة نقلت الى الاسلام ونسبت الى فيثاغورس ، ولم تكن هذه الأفكار هي الوحيدة التي نسبت الى فيثاغورس ، بل ينقل الشهرستاني آراء فيثاغورية أخرى تتعلق بالصورة والمادة خالف فيها حسب قول الشهرستاني جميع الفلاسفة الذين عاصروه ، غير أن هذه الآراء ليست لفيثاغورس انما هي آراء لأرسطو نسبت الى فيثاغورس وهي أنه جرد العدد من المعدود كتجريد الصورة من المادة ، وأنه تصور موجودا محققا وجود الصورة وتحققها •

ومن الأمور المسلم بها أن فيثاغورس بالذات لم يجرد العدد من المعدود • غير ان أرسطو تصور ذلك ، وكان هذا التصور من الاسباب المؤدية الى فكرة الصورة والهيولى • ورغم كل هذا فقد اختبر

فلاسفة الاسلام الفيثاغورية وعرفوا أن الأعـداد لديها هي أصول الموجودات ، كما أنهم وصلوا الى أن آراء فيثاغورس التي تقول ان العالم نغم ، وأن المباديء هي التأليفـات الهندسية وفق مناسبـات عددية ·

ولهذا كانت المتحركات السماوية ذات حركات متناسبة لحنيـة ، وهـي أشرف الحركـات وألف التأليفات · وفي اعتقاد الشهرستاني ان جماعة من الفيثاغورية وضعت المذهب الحروفي ، وان طائفة منهم ذهبت الى أن المباديء هي الحروف المجردة من المادة ، واعتبروا الألف في مقابلة الواحد والباء في مقابلة الاثنين ، الى غير ذلك من المتقابلات ·

وكذلك علـم المسلمون ان الفيثاغوريين حين قالوا ان الأعداد نماذج تحاكيها الموجودات من غير أن تكون هذه النماذج مقارنة لصورها في الذهن ، ووحدوا بين عالمين : عالم الموجودات وعالم الأعداد، وساعدهم على هذا أنهم لم يتمثلوا العدد مجموعا حسابيا بل مقدارا وشكلا · ولم يكونوا ينظرون اليه بالأرقام ، بل كانوا يبلورونه ويطورونه بنقط على قدر ما فيه من آحاد ، ويرتبون هذه النقط في

شكل هندسي ، فالواحد النقطة ، والاثنان الخط ، والثلاثة المثلث ، والاربعة المربع ٠

ومن هنا نلاحظ أنهم خلطوا بين الحساب وبين الهندسة ، ومددوا في المكان ما لا امتداد له ، وحولوا العدد أو الكمية المنفصلة الى المقدار ، أو الكمية المتصلة ٠ ويذهب بعض الفلاسفة المسلمين الذين طوروا الأفكار الفيثاغورية القديمة الى أن مبدأ الجسم هو الأبعاد الثلاثة ، والجسم مركب منها ٠ ووضعوا النقطة في مقابلة الواحد ، والخط في مقابلة الاثنين ، والسطح في مقابلة الثلاثة ، والجسم في مقابلة الاربعة ٠

وكذلك أخذوا الفكرة الفيثاغورية القديمة التي تعتبر أن النفس تأليفات عددية أو لحنية ، ولهذا ناسبت النفس مناسبات الألحان ، والتذت بسماعها وطاشت ، وتواجدت باستماعها وحاشت ، وكانت قبل اتصالها بالأبدان قد أبدعت من تلك التأليفات العددية الأولى ٠ ثم اتصلت بالأبدان ، فان كانت التهذيبات الخلقية على تناسب مع الفطرة وتجردت والنفوس عن المناسبات الخارجية ، اتصلت بعالمها ، وانخرطت في سلكها على هيئة أجمل وأكمل

من الاول ، بل ان فيثاغورس يرى حسب أقـوال الاسلاميين من الفلاسفة أنه عندما عاين هذه العوالم ونظر اليها نظرة علوية بالحس بعد الرياضة البالغة، حين ارتفع من عالم الطبائع الى عالم النفس والعقل، وسمع ما لها من الألحان الشريفة ، والاصـوات الشجية الروحانية ، تأكد ان عالمنا هذا يحتـوي القليل من الحسن لكونه معلول الطبيعة ، وما فوقه من العوالم الهي وأشرف وأحسن ·

ووصلت الى الفلسفة الاسلامية عقيدة فيثاغورس التي تذهـب الى أن النفس كائتـلاف الأجرام ، وكائتلاف الكائن من أوتار العود ، وذلك ان أوتار العود اذا امتدت فعلت آثرا ما ، وهو الائتلاف · وهذا يعني ان الأوتار اذا امتدت ثم ضرب بهـا الضارب حدث فيها ائتلاف لم يكن منها حال ، كانت الأوتار غـير ممدودة · وكذلـك الانسان ، اذا امتزجت أخلاطه واتحدت حدث من امتزاجها مزاج خاص ، وذلك الامتزاج الخاص هو آلذ يحيي البدن، والنفس انما هي أثر لذلك الامتزاج ، وهذا فعلا هو خلاصة آراء فيثاغورس حول النفس · نراها ونلمسها بوضوح في فيدون ، الذي يعتبر من أهم المصادر التاريخية التي تتحدث عن الفيثاغورية ·

ونلاحظ من خلال مصنفات الفلاسفة الاسلاميين ان فيثاغورس قد احتل مكانا مرموقا مقدسا لدى أهل الغنوص والتصوف ، بينما نراه عند فلاسفة المعتزلة والشيعة مرفوض عرفانيا لولا أنهم نقلوا عنه فكرة العدد الاثني عشر وقداسته ، ومركزه بالنسبة للروح والكون ، وحركات أشخاص الأفلاك وأصواتها ونغماتها ، وان أشخاص الأفلاك هؤلاء هم ملائكة الله ، وخلص عباده ، يسمعون ويبصرون ويعقلون ، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وتسبيحهم ألحان أطيب من قراءة داوود للزبور في المحراب ، ونغمات ألذ من نغمات أوتار العيدان الفصيحة في الايوان العالي .

وهذه التسبيحات والقراءات والتبتلات هي نغمات وألحان حركات الأفلاك . وان تلك النغمات والألحان تذكر النفوس البسيطة التي هناك بسرور عالم الأرواح التي فوق الفلك ، والتي جوهرها أشرف من جواهر عالم الأفلاك ، وهو عالم النفوس، ودار الحياة التي نعيمها كله روح وريحان في درجات الجنان كما جاء في القرآن وكما وجد في العالم الكون حركات منتظمة لها نغمات متناسبة لنفوسها ومشوقة لها الى ما فوقها .

وليست في حركات تلك الاشخاص ، وتغمات تلك الحركات سوى اللذة والسرور لأهلها ، مثل ما في نغمات أوتار الميدان من اللذة والسرور لأهلها في هذا العالم - فعند ذلك تتشوق النفس الى الصعود الى هناك من أجل الاستماع اليها ، والنظر الى حسنها وجمالها • كما صعدت نفس هرمس الثالث بالحكمة لما صفت وشاهدت ذلك ، وهو ادريس النبي •واليه أشار بقوله : (ورفعناه مكانا عليا) •

ولكن بعض الفلاسفة من أهل السنة والتعصب شنوها حربا لا هوادة فيها على فكرة المزج التي قال بها الفلاسفة الحقانيون بين الفلسفة والشريعة ، باعتبار ان الفلسفة في مفهومهم ليست سوى نوع من السحر والخرافات المتعلقة بعلم النجوم والأفلاك والمجسطي وآثار الطبيعة ، والموسيقى ومعرفة النغم ، والايقاعات ، والأوزان والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالاضافات والكميات والكيفيات ، وهذه المعارف لا يمكن حسب رأيهم ربطها بالشريعة، اذ أن عملية الربط ليست سوى لوسة ولطخة غار لها عواقب وخيمة ومخزية • لأن الشريعة كما يقولون مأخوذة عن الله عز وجل بواسطة السفير

بينه وبين الخلق عن طريق الوحي وباب المناجاة وشهود الآيات وظهور المعجزات ٠

ويرى أبو سليمان المنطقي المعروف بعد أن تنبه الى آراء وأفكار الطرفين وما بينهما من خلاف ، أحدهما السمع والآخر العقل ، فقال ان الشريعة تعتمد على الأثر والخبر المشهور بين أهل الملة والراجع الى اتفاق الأمة ، وليس فيها حديث المنجم عن تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك ، ولا حديث الطبيعي الناظر في الطبيعة وآثارها وما يتعلق بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، ومن الفاعل ومن المنفعل ، فيها وتمازجها وتوافرها ، ولا حديث المهندس الباحث عن مقادير الاشياء ولوازمها ، ولا حديث المنطقي الباحث عن مراتب الأقوال ، والعلائق بينها ٠

ويعتقد ان الأمة اختلفت في الأصول والفروع والتفسير والتأويل ، والعيان والخبر ، والعادة والاصطلاح ، ولم تلجأ الى الفلسفة ، لأن الله تعالى تمم الدين بنبيه صلى الله عليه وسلم ، ولم يخرجه بعد البيان الوارد في شيء دينها ٠ ان الأمة اختلفت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصنافا فيها

وفرقا : كالمعتزلة ، والمرجئة ، والشيعة ، والسنة ، والخوارج ، فما فزعت طائفة من هذه الطوائف الى الفلاسفة ، ولا حققت مقالتها ، وشواهدهم وشهادتهم ، وكذلك الفقهاء الذين اختلفوا في الأحكام عن الحلال والحرام منذ أيام الصدر الأولى الى يومنا هذا ، لم نجدهم تظاهروا بالفلاسفة واستنصروهم ·

ويعتقد القفطي ان هناك آثارا فيثاغورية في فلسفة محمد بن أبي بكر الرازي التي صيغت بمجملها على مثال مذهب فيثاغورس ، ويرى المسعودي أيضا ان الرازي كتب قبل وفاته بثلاث سنوات كتابا في ثلاث مقالات عن الفلسفة الفيثاغورية ·

ونجد في فلسفة الكندي رسائل ذات نزعة فيثاغورية محدثة كرسالتيه في « تأليف الأعداد » وفي « التوحيد من جهة العدد » ثم كتبه الموسيقية هي فيثاغورية محدثة ككتاب « ترتيب النغم الدالة على طبائع الأشخاص العالية » وكان الكندي معروف الى جانب كونه فيلسوف وطبيب ، بعلم الحساب ، وتأليف الألحان ، وطبائع الأعداد وعلم النجوم .

وهذا الخليط من العلوم والمعارف يعطينا الدليل الواضح على أنه رغم تأثره بالمشائية والأفلاطونية، فقد كان اتجاهه العرفاني الخالص فيثاغوريا ·

ولا نغالي أو نذهب بعيدا اذا قلنا بأن أغلب الفلاسفة الاسلاميين ان لم يكن بعضهم ، قد تأثروا بالفلسفة الفيثاغورية وأخذوا من أفكارها المنطلقة من الأعداد والموسيقى والتصوف والزهد والأخوة الكثير من الرموز والاشارات فبلوروها وشرحوها وصاغوها في قالب فلسفي اسلامي ينسجم مع الدين والشريعة وبعض الآيات القرآنية ·

واذا قلنا ان فلسفة الفارابي وابن سينا واخوان الصفاء والسجستاني وغيرهم تدين الى الأفكار الفيثاغورية بالكثير من التعابير والرموز والاشارات العددية المتعلقة بالتوحيد والتجريد والتنزيه ، وتحركات الكواكب والأفلاك ، لا نكون قد انحرفنا عن جادة الصواب ، ولا أطلقنا المفاهيم العرفانية جزافا ، ولا أهملنا ما قاله هؤلاء بالأرتماطيقا ، واعترافهم بفضل السابقين على اللاحقين ، خاصة بما قدمته الحضارة اليونانية في نقلها الشرقي ·

آراء وحكم فيثاغورية :

كتب التاريخ والفلسفة تضم العديد من آراء وحكم فيثاغورس التي كان يطلقها في شتى المناسبات، لتفعل فعلها بين أصحابه وتلامذته وأتباع مذهبه ، ومما يروى عنه أنه قال لتلامذته يوما : اعلموا يا بني أن رفض الدنيا قبل التلبس بها أهون من التخلص منها بعد الوقوع فيها · وان من رفع حاجته الى الله تعالى فقد استظهر في أمره · وان من آمن بالآخرة لم يحرص على الدنيا · ومن أيقن بالمجازاة لم يفعل غير الحسنى · وان من آمن بالله التجأ اليه · ومن وثق به فليتوكل عليه ·

ومن ذكر الموت نسي الأشياء · ومن تمسك بالله تعالى وعمل بمراضيه فذلك من الأحياء · وان من حزم الانسان أنه لا يخادع أحدا · وان من كمال عقله أنه لا يخدعه أحد · وان العاقل لا ينال القليل مما يحب الا بالصبر على الكثير مما يكره · والدنيا ينالها الانسان بالأموال والآخرة بالأعمال· وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه · وأولى الناس بالعفو عن المذنبين أقدرهم على العقوبة · وليس من أخلاق الكرام سرعة الانتقام · والدهر

لا يأتي على شيء الا غيره • وأطيب الأشيـاء ما يشتهي • وأحسن الطعام ما كان ابتداء • وليس شيء أسرع لازالة نعمة وجلب نقمة من ظلم الناس • ومن اشتبه عليه أمران ولم يعلم الصواب منهمـا فلينظر أقربهما الى هوى نفسه فيجتنبه •

واذا كانت الدنيا غرارة فما موجب الطمأنينة اليها • واذا كانت الأشياء غير دائمة ففيم السرور بها ؟! وقليل يفتقر اليه خير من كثير يستغنى عنه • والهوى الـه معبود ، والمملكة ظل زائل ، والعقل وزير ناصح ، والمال ضيف راحل ، والعمر طيف خيال ، والتواضع من مصائد الشرف ، والكلام فيما يعني خير من الكلام فيما لا يعني • والسكوت عما لا يعني خير من الكلام فيما يضر • والحسد بمنزلة صدأ الحديد الذي يأكل الحديد حتى يفنيه • ونقل الصخور العظيمة على الأعناق أيسر من تفهيم من لا يفهم •

وأعجز الملوك أقلهم نظرا في العواقب • والبلاد تملك بالأموال ، وتارة بالسيف واللسان ، وقلوب أهلها تملك بالاحسان • والنعم من الله تعالى مهرها شكره ، وشكر الله تعالى تعظيمه وعبادته وذكره •

والدنيا سريعة الزوال ولا يبقى أحد من كافة الناس على حال ٠ وشر الأموال ما أخذه الانسان من الحرام وصرفه في الآثام ٠ ومن لم تؤدبه المواعظ أدبتــه النوائب ٠ ومن ترك التوقي فقد استسلم للقضاء السوء ٠ ومن عدل عن الملوك في رعيته فقد حصن ملكه ومن ظلم رعيته فليتوقع هلكه ٠ وحاجة الملك الى الشجان الأعوان كحاجته الى الطعام والشراب ، غير أن الجاهل من الملوك يُرى عند حاجته اليهم يقربهم اليه ، وعند استغنائه عنهم يبعدهم ، والملك اذا هان عليه بذل المال توجهت اليه الآمال ٠

والجواب أوله كلام ، وآخره اصطلام ٠ وحوج الملك الى الحيل والمكائد والمداراة بالأموال والاقوال مع أعاديهم أولى من مقاتلتهم ٠ وما ركب أحد البغي الا صرعه٠وما أربح صفقة من باع الفاني بالباقي، والدنيا بالآخرة ! ومن اعتزل الناس واستغنى عنهم أمن منهم ٠ ومن طال عمره فقد أحبته ٠ ومن نظف ثوبه قل همه ٠ ومن طابت رائحته زاد عقله ٠ ومن يصحب الزمان يرَ فيه العجائب ٠ ومن مأمنه يؤتى الحذر ٠ واذا جاء القدر لم ينفع الحذر ٠ والعمران لا يكون في موضع يجوز فيه السلطان ، والعاقل لا يبيع يوما صالحا بيوم طالح ٠ والأيام صحائــف

الآجال : فيجب على العاقل أن يخلدهـا بصالح الأعمال · وللدهر طعمان : حلو ومر ، وللأيـام صرفان : عسر و يسر ، ولو أن العسر في جحر لأدخل الله تعالى اليه اليسر حتى يخرجه ·

حكاية فيثاغورية نادرة :

يُحكى عن فيثاغورس أنه قال : كان في زمانه ثلاثة من النساك العلماء · وأنه لم يكن في زمانهم أعلم منهم ، ولا أزهد في الدنيا ، ولا أعبد لله سبحانه وتعالى · وأنه نمي خبرهم الى ملك بلدهم · وكان ذلك الملك شديد الحب للدنيا ، وعظيم الحرص على حصولها والزيادة فيها ، وأنه أحب أن يرى هؤلاء الثلاثة · فسأل عن الموضع الذي يستقرون فيه · فأخبر أنهم مقيمون ببعض الجبال النائية عن مدينته وان الملك تنكر ومضى منفردا بنفسه ليجتمع بهم ، ولم يزل يطلبهم الى أن وجدهم على أعلى جبل من تلك الجبال · فوجدهم وقد أحاط بهم من جميع الجهات ذلك الجبل أُسود كثيرة مهلكة ، وتلك الأسود لا تتعرض لأولئك الثلاثة ولا من الدنو اليهم ·

فلما رأى ذلك هاله ، وأدركه توفيق الله تعالى ولطفه به وعنايته ، فأقبل على نفسه يحدثهـا ،

فقال لها : يا نفس ! هذا والله السلطان العظيم ، والمقام الكريم ، والمرتبة الفاخرة، والمنزلة الباهرة، لا ما أنت فيه من ملابسة الكد والنصب والاجتهاد والتعب وكنزك الأموال واعتدادك بصيانة المعاقل والرجال • وبالله ان ذلك جميعه لا يقوم ببعض هذا الحال • فلو فوضت أمرك الى خالقك وباريك ، وتوكلت عليه ، لاسترحت مما أنت فيه من العناء ومكابدة البلاء • ثم حثته نفسه على الاجتماع بهم •

فلما دنا من الأسود وثبت اليه ، فقال : اللهم رب هذه العصابة التي قد تخلو لعبادتك ! اصرف عني هذه الأسود ، واكفني شرهم ، حتى أجتمع بعبيدك هؤلاء • وان الله تعالى استجاب دعاءه ، وحادت الأسود عن طريقه ، ولم يتعرضوا له • فمشى حتى انتهى اليهم وسلم عليهم • فرحبوا به وسألوه عن حاله ، ولم يعرفوه • فقال لهم : أما أنا فمن بعض عبيد الله سبحانه وتعالى • فاني سمعت بكم وبحبكم لعبادة الله تعالى • فأحببت أن أجتمع بكم ، لعل أن يوفقني الله تعالى بكم الى طاعته ، وما يرضاه مني • فلما سمعوا مقاله قالوا : يا هذا نحن والله أحوج الى الاجتماع بمن يوفقنا الله تعالى به لذلك • وانا ما أقمنا ها هنا الا لذلك • فان أحببت أن تقيم

معنا فاقم • فأقام عندهم مدة ، وهم يعبدون الله تعالى • فلما كان بعض الأيام قال لهم الملك : أيها السادة الزهاد والحكماء العباد ! اعلموا ان نفسي قد حصل فيها أمور كدرت علي مشاربي ، وضيقت عليّ مذاهبي ، ولم يسعني كتمها ، ولا التوصل الى علمها ، وأريد أن أقصها عليكم [••••] (١) الملك : « بلى ! أعلم ذلك » فقال له الرجل : أفلا تعلم أن الموت يعرض لجميع الحيوانات ، والفساد لتركيب الجمادات ؟ فهذا العقل والعرف يتفق من فعل ما يقع به التمييز بين أفعال الآدمي وغيره من الحيوانات ؟ فقال له الملك : لا ! فقال الرجل : واذا كان الأمر كذلك ، والعقل والعرف لا ينكران أن يعمل الانسان ما لا يشاركه فيه غيره من الحيوانات : يقوم مقام الشكر لمن صنعه وأوجده ومنحه العقل الذي يدرك به مصالحه الدنيوية ويدفع به ما يكون ضررا عنه ، وخصه بذلك دون غيره من الحيوانات ، وليس ذلك يكون الا بالطاعات والأمور التي قد اطردت بها العادات في الملل السالفة والأمم

---

(١) في النص المخطوط وجدت هذه النقاط واظنها ليست سوى نقص بعض الكلمات في النسخة المنقول عنها . وهذا يدل على وقوع حديث بين الملك وبين احد الثلاثة .

المتقدمة ، والعقل والعرف قاضيان باستحسان كل ما يصدر من الانسان من الرحمة للضعفاء وصلتهم وصلة الأرحام والعدل واغاثة الملهوف والأمر بالمعروف ، وان ذكر الفاعل لذلك ونحوه هو الذي يبقى له بعد موته دون غيره ، واستقر ذلك لتعلم صحته .

فلما سمع الملك ذلك وقع في قلبه صحته . ثم انه أقبل على عبادة الله تعالى ، ومضى على ذلك أيام . ثم ان واحدا منهم قال لباقي أصحابه : اعلموا أن نفسي قد حسنت لي سؤالكم أن يتمنى كل منا من الله تعالى شيئا يناسب نفوسنا في مطالبها وأمانيها . فليذكر كل منا ما يحس في نفسه من ذلك شيئا ، فانه لا يخلو من فائدة ليستفيدها . فقال أحدهم : اللهم ارزقني من عبادتك وتعظيمك ما تبلغني به أعلى الدرجات ، وأن تحبب ذلك اليّ كما تحبب اليّ شرب الماء في حال شدة الظمأ ، وأن لا أزال على ذلك الى أن أقدم عليك .

وقال الثاني : اللهم أذهب عني شهوات الدنيا وزينتها والاهتمام بها ، وفرغني لعبادتك ، ووفقني لطاعتك وما ترضاه مني الى أن أرد عليك . وقال له

الثالث : اللهم أرزقني يقينا صادقا وايمانا بك ، واجعلني ملكا على بعض خلقك لأقضي بينهم بالقول وأحملهم على عبادتك وأكفهم عن معاصيك · ثم قالوا بعد ذلك : وأنت تمنَّ ! فقال : اللهم اقبضني اليك مسلما من المعاصي · واجعل راحتي في لقائك وطاعتك · واكفني شر نفسي · ثم ان الملك أقام عندهم أياما يعبد الله تعالى · ثم فارقهم وعاد الى مملكته ، وأقبل على عبادة الله تعالى والرأفة بعباده · وأفاض العدل عليهم والاحسان· ومضى له على ذلك مدة · ثم انه مرض مرضا شديدا ، وأحس بالموت · فجمع أكابر أهل مملكته وأعيان رعيته الى بين يديه وقال لهم : معاشر الناس! اعلموا أنه قد آن أن ينزل بي الموت الذي لا ينجو منه أحد من الناس · واني قد استخلفت عليكم بعدي العابد فلانا · فاذا مت فاطلبوه في أعلى الجبل الفلاني . فانه يصلح أمركم ويحسن اليكم · ثم انه مات بعد أيام · فمضى جماعة من أعيان مملكته وأكابر تلك الدولة الى ذلك الجبل ·وسألوا عن العابد الذي ذكره لهم ، فأرشدهم أصحابه اليه فقصوا عليه قصة ملكهم وتوصيته بالملك له . وسألوه المضي الى ملكه وتدبيره برأيه · فبهت ذلك العابد

لقتالهم وقال لهم : يا هؤلاء ! ما لي بالملك حاجة ٠ ومع هذا فما أنا من بيت الملك ولا أهل له ، فاطلبوا للملككم سواي ٠ فقالوا له : يا هذا ان ملكنا أخذ علينا العهد لك ، وما يمكننا نكث عهده ٠ وقال له صاحباه : أما أنك كنت تمنيت على ابك ذلك . وقد أتاك ذلك فامض اليه وافعل ما التزمت فعله ، فبكى وودع صاحبيه ومضى مع أولئك الى البلد . وتلقاه الناس وبايعوه ، وأحسن فيهم السيرة وأفاض العدل ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وأقام الحدود ، وساسهم أحسن سياسة ، وقهر أعداءه ، وتضاعف ملكه بما كان من البلاد التي تجاوره ٠

وأقام على ذلك سنة ٠ ثم انه سأل الله تعالى بعد ذلك أن يريه عمله مصورا قبل ملكه وبعد ملكه ٠ فأراه الله ذلك ، فوجد محمله بعد ملكه قد نقص الثلث عن عمله قبل ملكه ٠ فاعتراه الندم ، وخشي على نفسه الهلاك ٠ ثم انه صبر الى أن انقضت السنة الثانية ٠ ثم انه سأل الله تعالى أن يريه صورة عمله مصورا في السنة الثانية وعمله في السنة التي ملك فيها ٠ فأراه ذلك ، فوجده قد نقص عمله في الثانية عن الاول النصف ٠

فعند ذلك بكى بكاء عظيما . وجعل يصفر وجهه على الأرض . ثم انه ذهب الى صاحبيه ، وقص عليهما قصته ، فقالا له : يا هذا ! ألم تعلم أن الملك خطره عظيم ، وخطبه جسيم . ولن يسلم من موبقاته وينجو من شروره الا من أمده الله تعالى بتوفيقه وعصمه ؟! فعليك بتقوى الله تعالى ومراقبته . وقف عند أوامر الله تعالى ونواهيه . وخذ المال من حله . واصرفه الى مستحقه ، واكفف أيدي أعوانك وولاتك وعمالك واصحابك عن أموال رعيتك وعن أعراضهم وعن حرمهم وأولادهم . ولا تغتر بمسالمة الزمان لك ولا بكثرة ما منحك الله تعالى به من الأموال والبلاد والجنود ، فان ذلك كله زائل عنك . وتيقظ لآخرتك ان شئت أن تنجو من الهلاك . وانه عاد الى ملكه ، ولم يزل ملازما لما أمره صاحباه ، الى أن انتهى أجله وختم بالصلاح عمله .

حكم فيثاغورية مأثورة :

قيل انه عزى حكيما قد مات أخوه فقال له : أما ان مثلي ما ينبغي له أن يعزي مثلك . ولكني أشير عليك بأنك تتأهب للمضي الى عند أخيك ، فان الطريق مخوف .

ومن ذلك ما قيل عنه انه كان له أخ مسرف على نفسه في ارتكابه الفواحش . فقال له : يا أخي ! أما أنك غدوت كالاصبع الزائد التي ان تركت ساءت . وان قطعت آلمت .

ومن ذلك ما قيل عنه من أن أهل رومية مات ملكهم . فاتفقت آراؤهم على تمليكهم لرجل منهم ، فعزموا على تمليكه ، ثم أحبوا مشاورتهم في ذلك لفيثاغورس . وأنهم مضوا اليه واستشاروه في ذلك وأنه قال لهم

اما أنا فلا أرى تمليككم لهذا عليكم . فقالوا له : ولِمَ ذلك أيها الحكيم ؟ فقال لهم : لأنه قد اشتهر عنه أنه كثير الغضب . وليس يخلو في غضبه من أحد أمرين : اما أن يكون ظالما ، أو يكون مظلوما . والظالم لا يصلح أن يملك على الناس ، والمظلوم ضعيف ، والضعيف لا يصلح للملك ، فعلموا صحة مقاله . فلم يملكوا ذلك ، وملكوا غيره .

ومن ذلك أن تلامذته قالوا له يوما : أيها الحكيم ! أما أن فلانا الحكيم ما ناظره أحد فيمن الأيناه الا وغلبه ولا يكون به طاقة . وقد تعجبنا من

ذلك • فقال لهم : لِمَ تتعجبون من ذلك ! فانه يبهت من يناظره بالكذب ، ويستشهد على مــا يدعيــه بالموتى ، ويحيل على الغائب •

ومن ذلك ما قيل عنه انه رأى امرأة بغية وهي كثيرة الابتهال الى الله سبحانه وتعالى وساءلته أن يجعلها نقية ، فقال لها : يا هذه ! أما والله ان كلا الأمرين بيدك • قفي عند أحبهما اليك وأعودهما عليك •

« تم الكتاب »

الفهـرس